2020
6.1.2020

غوستاف يانوش

# كافكا قال لي

## أحاديث وذكريات

ترجمة: نجاح الجبيلي

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

غوستاف يانوش

# كافكا قال لي

## أحاديث وذكريات

ترجمة

نجاح الجبيلي

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

# كافكا قال لي

الكاتب: غوستاف يانوش
عنوان الكتاب: كافكا قال لي
اختيار وترجمة: نجاح الجبيلي

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9922-623-10-8
الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045
daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
@Dar alrafidain

# مقدمة

**بقلم ماكس برود**

كان القلة من الكتّاب لهم مصير فرانتس كافكا ذاته: إذ بقيَّ في حياته مجهولاً تماماً تقريباً؛ وعند مماته أصبح مشهوراً تقريباً بين ليلة وضحاها.

في حالة فرانتس كافكا يفقد المصير قسوته، لأنه كان غير مبالٍ بالشهرة تماماً. فالكتابة بالنسبة له «شكل من أشكال الصلاة» (كما قال في يومياته). كانت جميع جهوده مركزة على الإشباع الروحي وتحقيق حياة يلزم أن تكون نقية بشكل مباشر. ومن غير الصحيح القول بأنه لم يكن يهتم بما كان العالم يعتقد بشأنه. ببساطة أنه لم يكن يمتلك الوقت لكي يُبدي قلقه حول رأي العالم. كانت حياته مستغرقة تماماً في المسعى لتحقيق الأسمى الذي يكمن في قوة الإنسان؛ بالإصرار، المركّز لحد المعاناة والجنون تقريباً، لكي يستأصل من نفسه كل رذيلة، وكل فشل إنساني، بينما يفحص ضعفه باهتمام دقيق؛ ولكي يحقق تلك المشاركة مع الرب التي وصفه في أقواله المأثورة كونه «الراسخ». وبهذا يكون كافكا الأقرب إلى تولستوي من بين الكتاب المعاصرين. تصرّح إحدى جمله بموقفه الديني بصورة واضحة: «لا يمكن للإنسان العيش دون إيمان ثابت في شيء راسخ معه».

قليل من الناس أبدوا بعض الانتباه إليه خلال حياته. لكن، كما قلنا،

لو كان كافكا بلا خيلاء وطموح تماماً، للاحظ مع ذلك حقيقة عزلته بنوع من السخرية السوداء. أتذكر بأنه بعد نشر كتابه الأول «تأملات» قال لي، بالكلمات التالية تقريباً (يجب على القارئ أن يفهم بأن شركة أندريه كانت أكبر بائع للكتب في براغ): «أمس تكلمت مع السيد أندريه، وأخبرني بأنه باع إحدى عشرة نسخة فقط من كتابي. أنا اشتريت بنفسي عشر نسخ. كم أتلهف لمعرفة من ذلك الذي اشترى النسخة الحادية عشرة».

لهذا توقفت المطبوعات في حياة كافكا. أما اليوم فلا تكاد تفتح نسخة من مجلة ألمانية أو فرنسية أو إنكليزية أو أميركية أو إيطالية دون أن تلتقي باسم كافكا.

إن الضوء البسيط الذي ينير شخصية كافكا اليوم لا يؤدي بشكل غير طبيعي إلى تشويهات مختلفة. غير أننا ربما نهملها بشكل أمين، ونثق بالضبط بذلك العنصر من «الراسخ» الذي خرقه كافكا بنفسه. بمعنى، إنه بمرور الزمن، فإنّ تخوم شخصيته المركبة، التي تثير اليوم الكثير جداً من الجدل، سوف تظهر كما كانت في الواقع.

مع ذلك، إنها مسألة ابتهاج وإصلاح معاً، حين تعرض شخصية كافكا اليوم بتناسبها الصحيح والجوهري، وبالأخص عن طريق دليل من شهود عرفوا كافكا شخصياً. وقد وقع في يدي مؤخراً «ذكريات مع كافكا» كتبه صديق له اسمه «فريدريش تايبرغر». كما ألقت «فراو دورا ديمانت»، رفيقة كافكا خلال السنوات الأخيرة من حياته إلى لحظة موته، الضوء على علاقتها معه (توفيت في لندن عام 1952) سواء في محاضراتها العامة أو في أحاديثها الخاصة، وقد سجّل جزءاً كبير منها «فلكس ولتش».

تنتمي ذكريات «غوستاف يانوش» الرائعة مع كافكا إلى هذا الصنف من الدليل، إذ تحمل قيمة خاصة لأنّ مؤلفها سجل كلمات كافكا في ذلك الوقت حين كانا يتبادلان الحديث. تماما مثلما سجّل «أكرمان» عبارات «غوته» مباشرة بعد كل حديث وأهدى لنا ذلك المصدر الذي لا يقدّر بثمن لفهم طبيعة غوته الحقيقية.

أوضح يانوش بنفسه سيرته الخاصة، وأصل الأحاديث مع كافكا وتاريخ مخطوطته. ربما عليّ أن أُضيف هنا كيف وقعت المخطوطة في يدي، وبعض الشيء عن كيفية إكمالها لمعرفتنا عن حياة كافكا خلال الفترة التي تلت نهاية آذار ـ مارس 1920، أي، من اليوم الذي التقى به يانوش بكافكا. إنها فترة لم يذكر عنها إلا القليل مما نُشِر: لذا فإنّ كتاب يانوش يملأ ثغرة.

في آيار ـ مايو 1947 وبعد ثماني سنوات من مغادرتي نهائياً مسقط رأسي في براغ، تسلّمتُ رسالة من هناك تبدأ بالكلمات التالية:» لا أعلم إن كنت تتذكرني. إني الموسيقار الذي كتبتَ عنه في صحيفة «براغر تاغبلات» بعد فترة قصيرة من مغادرتك براغ: فأنا الذي كنتُ مسؤولاً عن نشر الطبعة التشيكية لرواية «التحوّل» من قبل الناشر جوزيف فلوريان. سأل الكاتب إن كان هناك مانع من إرساله تدوينات من يومياته عن فرانتس كافكا، مع اقتراح بنشرها. وكتب يانوش في رسالة ثانية:»فرانتس كافكا هو صديق شبابي وأكثر. تستطيع أن تتصور الإثارة التي أشعر بها».

وبعد تأخير طويل وصلت المخطوطة، وبسبب ضغط العمل عليّ في ذلك الوقت بقيتْ لبعض الوقت غير مقروءة. ثم أن سكرتيرتي «فراو أستر هوفه»، التي أدين لها كثيراً في المساعدة بترتيب وتحرير مؤلفات كافكا

الباقية، أخذت المخطوطة، وبعد أن قرأتها أخبرتني بأنها كانت عملاً قيّماً ومهماً جداً. نتيجة ذلك، قرأتُ المخطوطة بنفسي واندهشتُ بثروة الانطباعات الجديدة التي نقلتها، وهي تحمل بلا أدنى شك بصمة كافكا وموهبته. حتى مظهره الجسدي، وطريقته في الكلام، وعادته الرقيقة والمعبّرة في الإيماء، وبقية الصفات الجسدية، كلها يجري تسجيلها بشكل حيوي. وشعرتُ كأنّ صديقي «كافكا» عاد إلى الحياة مرة أخرى ودخل في تلك اللحظة غرفتي. أسمعهُ ثانية يتكلم، وأحسستُ بأنّ نظرته الذكية والمفعمة بالحيوية مسلطة عليّ، ورأيتُ ابتسامته الحزينة الهادئة، وشعرتُ بنفسي مرة أخرى بأنّ حكمته تملكتني وأثارتني.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى التقيتُ بدورا ديمانت وقرأتُ لها كتاب يانوش غير المنشور. وقد أعجبت به وبملاحظات يانوش التي ميّزت أسلوب كافكا وطريقة تفكيره. كان الكتاب بالنسبة لها لقاء بكافكا مرة أخرى، فكانت منتصرة. إذن هناك شاهدان يؤمّنان موثوقية هذه الأحاديث. بعد ذلك ظهر حالاً كتابٌ ثالث. فقد نُشِرَ كتاب «رسائل إلى ميلينا» لكافكا حرره صديقي «فيلي هاس». لقد أُحتُفِظَ به لأكثر من عشرين سنة في غرفة محصنة بمصرف في براغ، ولم أكن أعرف بوجوده. قرأتُ الرسائل، وهي في رأيي، من أعظم رسائل الحب في كل الأزمان وفي يوم ما ستأخذ مكانها إلى جانب رسائل الغرام المحمومة المتواضعة لـ«جولي دلسبيناس». هنا ألتقي مرة أُخرى بالشاعرِ الشاب المتردّد غوستاف يانوش، الذي جلب قصائده الأولى لغرض نقدِها من قبل كافكا الذي كان مُعجباً به كثيراً، وناقشها معه، ومن الواضح أنه أغضبهُ، لأنه كان مشغولاً بأفكارٍ وعواطفِ مختلفة. لذا، إذا ما نظرنا من زاوية أخرى، فإنّ الخلفية الكاملة للأحاديث،

التي يعطيها يانوش حتماً وصفاً من جانب واحد، تظهر، ساخرة، بمنظور مختلف تماماً، مع ذلك وللسبب ذاته، فإنها تبدو أكثر مصداقية ككل.

علاوة على ذلك، ظهر يانوش مُسبقاً في سيرتي عن كافكا، التي نُشِرَت لأول مرة عام 1937. صحيح أنه ظهر في ضوء معكوس، لو توخينا الدقة، بشكل أبيه، وبشكل مجهول. أصفُ في الفصل الثالث موهبة كافكا في صداقته مع زملائه في مكان عمله في مكتب «مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال»، وأضيف، «حتى مع البسطاء والغرباء جداً». اقتبسُ، كمثال، المذكرة التي كتبها مفتشٌ وأعطاها لي فرانتس، وأنا الآن أكشف عن تلك المذكرة، وكانت لحظتها ملقاة على الطاولة التي أمامي. إنها نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة وتبدأ بالكلمات[1]:

**NOS EXULES FILII EVAEIN HAC LAC RIMARUM VALLE**

وتحتوي، كما أشار كافكا بكتابة يده، على «البرنامج المنتشي لرجل في الخمسين من عمره» مصممة للتأثير على «اتحاد بين اليهود الشرقيين (دليلة) والسلاف (أورسوس) سلاف اليوم، لخلاص كليهما، وولادة شمشون، الرجل الديني الجديد الخلّاق». إن المؤلف واسع الخيال والأصلي لهذه المذكرة في الواقع هو أب يانوش. في الوقت نفسه التقيت بالأب شخصياً، كما التقيت فيما بعد بالابن.

كانت فترة صداقة كافكا مع يانوش بالنسبة له قد سيطر عليها نجم «ميلينا يسينسكي بولاك». التقى يانوش بكافكا في نهاية آذار ـ مارس عام 1920. يوميات كافكا صمتت عن شأن تلك الفترة من كانون الثاني ـ يناير

(1) باللاتينية في الأصل وتعني: نحن نفي بني حواء في هذا الوادي.

1920 حتى 15 تشرين الأول ـ أكتوبر 1921: الدفاتر أو الصفحات كانت مفقودة. تدوينة كافكا الأولى في 15 تشرين الأول ـ أكتوبر 1921 تظهر بأنه قد سلّم يومياته إلى ميلينا. ومن الممكن أنه قد دمّر كل المقاطع التي تشير إلى هذه العلاقة الغرامية. وبعد موته جلبت ميلينا لي كل اليوميات، وكذلك مخطوطتي روايتي «أمريكا» و«القلعة» التي كانت تحتفظ بهما.

في رسالة موجهة لي بعد موت كافكا تكتب ميلينا: «مخطوطاته ويومياته (لم أكن معنية بها إطلاقاً، وألّفها قبل أن يجري تعارف بيننا، وهي حوالي خمس عشرة كراسة) هي بين يديّ، وإذا تريدها فهي تحت تصرفك. تلك كانت رغبته ورجاني أن لا أظهرها لأي شخص آخر، وفقط حين يكون قد رحل عن الحياة». اقتبستُ هذا حرفياً من اللغة الألمانية المرتبكة للمؤلفة، التي كانت في لغتها الأصلية، التشيكية، كاتبة مثيرة للإعجاب وصاحبة أسلوب أعجب كافكا كثيراً. كانت يوميات كافكا المدونة حتى تاريخ 22 آيار ـ مايو 1922 عن ميلينا، التي يشير إليها بالحرف م. تتبع تلك المقاطع من اليوميات التي عثرتُ عليها لاحقاً في مكان آخر. علاقتهما الحميمة، التي جلبت لكافكا في البداية سعادة كبيرة، سرعان ما تحولت إلى مأساة، وأمتلكُ رسالة يتوسلني كافكا فيها لكي أمنع ميلينا من رؤيته مرة أخرى.

إذن هذه هي الخلفية الكئيبة للأحاديث التي نقلها يانوش لنا. فهي تعطينا بعض الفكرة عن السيطرة الواسعة على الذات التي مارسها كافكا في كل المناسبات تقريباً ـ ما عدا حين يوجه يومياته أو في أشد الأحاديث حميمية ـ إذ يشير فقط بصورة غير مباشرة إلى الحزن الكبير المسلط عليه ويظهر نفسه كونه مشاهداً حكيماً وموضوعياً وفلسفياً لأحداث العالم والصراعات الطبقية والقومية والدينية.

إنّ كلمات كافكا، كما نقلها يانوش، تعطي انطباعاً عن الموثوقية والأصالة. إنها تحمل علامة واضحة على أسلوب كافكا في الحديث، الذي يمتاز بكونه أكثر إيجازاً واكتنازاً من أسلوبه في الكتابة. من المستحيل بالنسبة لكافكا أن يقول شيئاً ليس له مغزى. لم أسمع أبداً كلمة تافهة من فمه. كل شيء كان تلقائياً وسهلاً، وأصلياً بطبيعته، ولم يكن بحاجة للكفاح و اء الأصالة. إذا لم يكن لديه شيء مهم يقوله، يبقى صامتاً. والمواضيع التي ناقشها مع يانوش كانت أيضاً مألوفة لي نتيجة لعدد كبير من الأحاديث الأخرى، ولم أخفق في تمييز حقل مهيمن من الاهتمامات التي كانت تشغل بال كافكا.

في سيرتي عن كافكا ناقشتُ بتعليق موجز الفترة الكاملة التي كان يانوش شاهداً عليها. وحين كانت ميلينا ما تزال على قيد الحياة، كتبتُ بتحفّظ. في الوقت نفسه، علِمنا الكثير عن هذه المرأة المدهشة من مارغريته بوبر نيومان وكتابها «سجينة لستالين وهتلر»، وموتها الفظيع في معسكر للاعتقال، وقوتها العجيبة والملهمة التي كانت تنقلها لكل من كان على اتصال بها.

وصف كافكا في يومياته المؤرخة في 18 كانون الثاني ـ يناير 1922 جوهر شخصيتها كونهُ «إقداماً». دليل آخر متاح الآن في رسائل كافكا لها وفي مقدمة «فيلي هاس»، مع الحقائق المهمة التي تتيحها. تعكس ملاحظات يانوش، بمعنى محدد، إشعاعاً من وجود ميلينا، على الرغم من أنّ اسمها لم يُذكر. ويمكن تقديرها بصورة صحيحة لو أن المرء أدرك بأن كافكا، الذي كان في ذلك الوقت (كما تشير الأحاديث)، مستغرقاً بالأخص في المسألة اليهودية، عقد علاقة غرامية مع ميلينا، وهي تشيكية غير يهودية. إضافة إلى

أنّ صديقيها كلاهما متزوج من امرأة يهودية، وكان زوجها يهودياً أيضاً. وقد أثار زواجها نزاعاً عنيفاً مع أبيها، الذي كان تشيكياً قومياً متطرفاً. في مثل هذا الموقف الذي كان غريباً ومزعجاً لكافكا وواجهه بشكل معقّد جداً، اكتسب تبصراً عميقاً في المسألة اليهودية. ويمكن أن نجد تعليقه على الموقف، كما أدركتُ بعد قراءة أحاديثه مع يانوش ورسائله إلى ميلينا، في روايته العظيمة «القلعة»، تلك الأغنية المدهشة للغريب المتشرد، الذي يرغب في إدراك جذوره في البلد الذي اختارهُ، لكنه لم ينجح. على الرغم من الثيمات الدينية والكونية الواسعة التي تهتم بها رواية «القلعة» إلا أنّ العنصر المتعلق بالسيرة يجب عدم إغفاله. إنّ يانوش أسهم إسهاماً مهماً وبشكل غير واعٍ في فهمنا للموقف، الذي سوف يسلّط فيه المزيد من الضوء في يوم ما عن طريق رسائل ميلينا لي (ثماني رسائل تحتوي على تحليل عميق لكافكا وعلاقته معها)، وملاحظاتي الخاصة عن تلك الفترة من حياة كافكا، مع الأسرار الشخصية لكافكا وميلينا التي أباحاها لي (لم تُنشر لأنها حُذِفَت عمداً من سيرتي عنه). في الوقت الحاضر لا حاجة للقول أكثر من هذا: تعكس رواية «القلعة»، بشكل مشوّه، علاقة كافكا الغرامية مع ميلينا، الموصوفة بشكٍّ وتحامل غريبين أتاحا لكافكا طريقته الوحيدة للخروج من الأزمة. بذلت ميلينا، التي تظهر بصورة كاريكاتيرية في الرواية باسم «فريدا»، جهوداً لإنقاذ كافكا (ك)، كرست نفسها له، رتبت بيتاً معه في الفقر والأسى، مع ذلك، تمنت سعيدة وبشكل متأنٍّ أن يكون لها إلى الأبد، ولكي تقوده للعودة إلى النشاط وبديهية الحياة الحقيقية. لكن حالما يقبل (ك). ويمسك اليد التي تقدمها له، فإنّ علاقاتها السابقة التي تسيطر عليها، أعادت تأكيد نفسها («القلعة»، عِرقها، مجتمعها، علاوة على السيد «كُلام»

الشرير الذي ربما يشير إلى الصورة الكابوسية لزوج ميلينا الشرعي، الذي لا تستطيع أن تنفصل عنه تماماً)، وحلمهما بالسعادة وصل إلى نهاية مفاجئة. لأنّ (ك). لا يقبل التسويات، وغروره، رغم كل نياتها الطيبة، وهو ليس من أولئك الذين يحاولون أن يتجنبوا اختيار «كل شيء أو لا شيء»، ويعرف كيف يجد الأسلوب الوسط للدبلوماسية.في الوقت نفسه، من الواضح أنّ إرادة (ك). في الخلاص الجذري أكثر عناداً من إرادة «فريدا» التي تحترق بنار جوهرية جداً، وتفسح الطريق بسهولة للتحرر من الوهم. إنّ التوازي بين الحقيقة والخيال يمكن تتبعها بشكلٍ أبعد، وتظهر بالأخص في شخصية (ك). المعذبة لذاتها (يرى نفسه كدجّال). صديقات ميلينا، اللاتي نصحنها بالعدول عن اختيارها، في الرواية يجدن مثلهنّ الأعلى في الشخصية الأسطورية المشؤومة «مالكة الأرض»، التي تؤدي إلى حدٍّ ما دور الكورس في المأساة الإغريقية. إنّ غيرة فريدا الغريبة واحتقار أولغا في الرواية هما نظيران للموقف، الذي، حسب الرسائل،الذي اختارته ميلينا تجاه (ي.ف) التي كانت مخطوبة لكافكا. طلبت بشكل قاطع من كافكا أن يقطع كل علاقاته مع ف. وعائلتها. وعدّ كافكا طلبها حاداً وظالماً، لكن مع ذلك خضع له. شذرات الحقيقة هذه يمكن العثور عليها خلال الرواية. مع ذلك، ما يلهم المرء بإعجاب أكبر، حين يدرك ذلك من هذه الشذرات بأنّ كافكا قد أقام هيكلاً يرتفع فوقها كلها، عملٌ فني، متشائم، غامض، نبوئي، أعاد فيه الكاتب خلق وتشكيل مادة الحياة بشكل تخييلي. إنّ أهمية عناصر السيرة بقلم كاتبها في تكوين العمل الفني يجب أن لا يجري المبالغة بها بالتأكيد. لكن لو قام أحدٌ بالاستهانة بها فيمكنه بسهولة أن يصل إلى رأي خاطئ.

لهذا فإنّ رواية «القلعة» لكافكا تتيح مسرحاً «للأحاديث» التالية وتكمن في كواليسها.

كتب كافكا الرواية بين عامي 1921 و1922. والتاريخ الأسبق الذي أستطيع أن أحدده لاشتغاله على الرواية هو 15 آذار ـ مارس 1922، حين قرأ لي كافكا جزءاً كبير من بداية الرواية التي يعمل عليها. بالتأكيد تظهر ثيمات متشابهة قبل مدة طويلة في يومياته (مثلاً، في 11 حزيران ـ يونيو؛ «إغراء في القرية»)، وحاولت أيضاً أن أنسب مادة روايته إلى قراءته حين كان طالباً (للرواية الكلاسيكية التشيكية «الجدّة» لبوزينا نيمكوفا، وفيها قرية تهيمن عليها قلعة غريبة). لكن هذا لا يمنعنا من تمييز تلك العلاقة مع ميلينا التي كانت مناسبة لملء عقل المؤلف، فطفح بالشراب المُسكر الذي أثملهُ وألهمهُ في تأليف رواية «القلعة». إنّ الأحاديث التالية، سوية مع رسائل كافكا إلى ميلينا ورسائل ميلينا لي، تتيح توثيقاً ضرورياً لهذه الفترة من حياة كافكا. وكلها مهمة لأنّ يوميات كافكا خلال هذه الفترة مفقودة تماماً، وناقصة جداً خلال السنوات القليلة الباقية من حياته.

**أكتوبر ـ تشرين الأول 1952**

# كافكا قال لي

## غوستاف يانوش

التقيت بكافكا لأول مرة في عام 1920. في عام 1926 تعاونتُ في الطبعة التشيكية لقصته «التحوّل» التي ترجمها «لودفيغ فرانا» ونشرها «جوزيف فلوريان».

في أشهر الصيف من عام 1926. ترجمتُ لـ«جوزيف فلوريان» ست قصص من مجموعة كافكا «طبيب ريفي». وظهرتْ قصة واحدة فقط مطبوعة باللغة التشيكية من بين الترجمات الست. كانت تلك القصة تحملُ عنوان «حُلم» وظهرت في عام 1929 كمقدمة لسلسلة من ست لوحات حفر أصلية للرسام الألماني أوتو كوستر، مُعدّة عن ثيمة رواية «التحوّل».

***

في الوقت نفسه طلب مني جوزيف فلوريان أن أرتب ملاحظات وتدوينات في يومياتي عن موضوع فرانتس كافكا وأجهزها للنشر في اللغة التشيكية. لذا نسختُ التدوينات المهمة في يومياتي من دفاتر مختلفة، كي أفصل الصفحات، وأعطيت المخطوطة التشيكية إلى جوزيف فلوريان. لكن مخطوطتي لم تنشر أبداً إذ إني تشاجرتُ معه.

ثم جاءت سنوات من التجوال القلق، وبلغ أوجه في البؤس الحاصل في

الحرب العالمية الثانية والاضطراب ومشاكل الحاضر. عانيتُ من الخوف المميت والاضطهاد والسجن والجوع الحيواني والقذارة والبرد والقسوة الحمقاء لطبقة الموظفين، والفوضى إذ إنّ المبدأ يُخفي تحته عالماً عقلياً ظاهراً؛ أصبحتْ مملكة ظلال كافكا الغاربة تجربة يومية عادية تماماً.

***

أتذكره قال لي مرّة:

ـ لا بدّ من أن تمرّ العديد من السنين الطويلة قبل أن تكون الأذن مستعدة لقصّة محدّدة. لكن الكائنات البشرية لا بدّ من أن تموت ـ مثل آبائنا وكل شيء نحبّه ونخشاه ـ قبل أن نتمكن من فهمها بصورة صحيحة.

سمعتُ صوتهُ مرة أخرى. رأيتُ مكتبهُ وطاولته، وخارج نافذته الجدار الأصفر لفندق براغ القديم «الدراج الذهبي».

تذكرتُ المخطوطة التي سلّمتها إلى جوزيف فلوريان قبل سنوات، وفتشتُ بين كتبي وأوراقي، في بيتي وبيوت أصدقائي، وعثرتُ على المسودات التشيكية والألمانية للأصل الذي فُقد منذ مدة طويلة. في سطور في غاية الغرابة لكنها مألوفة جداً رأيتُ صورة لي عمرها أكثر من 22 سنة. الكثير لم يزل غير ناضج. سوف أغيّر بسرور من هذا التفصيل أو ذاك، لكن مع ذلك لم يزل في العيون الطفولية ظلٌّ مُنحنٍ لقوام كافكا الطويل.

لذا كبحتُ نفسي عن اختيار ذكرياتي القديمة وترتيبها وتدوينها.

***

في أحد الأيام من أواخر آذار ـ مارس 1920 طلب مني والدي في العشاء أن أزورهُ بمكتبه في الصباح التالي.

قال:

ـ أعرف كم مرة هربت من المدرسة لتذهب إلى مكتبة المدينة. لذا تستطيع أن تأتي غداً لتراني. البسْ ملابس محتشمة. لأننا سنقوم بزيارة.

سألته:

ـ أين سنذهب معاً؟

يبدو أنّ فضولي قد ضايقه. لكنه لم يعطني تفسيراً.

قال:

ـ لا تطرحْ الأسئلة. لا تكن فضولياً وتهيّأ للمفاجأة.

في اليوم التالي، وقبيل منتصف النهار، حضرتُ في مكتبه عند الطابق الثالث من «مؤسسة التأمين على حوادث العمال». تفحّصني بعناية من قمة رأسي إلى أخمص قدميّ، فتحَ الدُرج الأوسط من طاولته وأخرجَ ملفاً أخضر منقوشاً باسم «غوستاف». وضعهُ أمامه ونظرَ لي نظرة طويلة. وقال بعد فترة وجيزة:

ـ لماذا تقف؟ استرخْ.

أثار التعبير القلق على وجهي ضيقاً باهتاً مؤذٍ لجفونه.

ـ لا تخفْ لن أغضب منك.

بدأ بأسلوب ودي. وأضاف:

ـ أريد أن أكلمك كصديق لصديق. انسَ أنني أبوك وأصغ لي. أنت تكتب قصائد.

نظر لي وكأنه على وشك أن يقدم لي فاتورة.

تمتمتُ:

ـ كيف عرفت؟ كيف اكتشفتها؟

قال أبي:

ـ الأمر بسيط جداً. في كل شهر تأتينا قائمة طويلة لمصاريف الكهرباء. وفتشتُ عن أسباب هذه الزيادة في الاستهلاك واكتشفتُ بأن الضوء في غرفتك يبقى حتى أواخر الليل. أردت أن أعرف ماذا تعمل فأبقيت عيني مفتوحتين. ووجدتُ بأنك تكتب وتكتب ثم تمزق ما كتبت دائماً، أو تخفيها بخجل في البيانو. وفي صباح يوم ما حين كنتَ في المدرسة ألقيت نظرة عليها.

ـ ثمّ؟

ورحتُ أبلع ريقي بصعوبة.

قال أبي:

ـ لا شيء. وجدتُ دفتراً أسود عنوانه «كتاب التمرين». كنتُ أشعر بالمتعة. لكن في الوقت نفسه، حين اكتشفتُ أنه يومياتك وضعته جانباً. فليس لديّ الرغبة في التنقيب عن روحك.

ـ لكنك قرأتَ القصائد؟

ـ نعم قرأتها. كانت مكتوبة بلون غامق على أوراق بعنوان «كتاب الجمال». لم أفهم العديد منها. بعضها أستطيع أن أصفها بالحمقاء.

ـ لماذا قرأتها؟

كنتُ في السابعة عشرة من العمر، لهذا كانت أي مودّة معي تعني عيباً في الذات.

ـ ولماذا لا أقرأها؟ ولماذا لا أعوّد نفسي على كتاباتك؟ أريد كثيراً أن أسمع رأياً محترفاً من قبل مرجع كفؤ. لذا قمتُ بإملاء القصائد وكتابتها بالطابعة في المكتب.

ـ أي القصائد استنسختها؟

أجاب والدي:

ـ كلها. لا أقدّر إلا ما أفهمه بنفسي. بالنتيجة، أردتُ نقداً لا لذوقي بل لقصائدك. لذا استنسخت كل شيء وأعطيتهُ إلى الدكتور كافكا ليعطي رأيه.

ـ من هو الدكتور كافكا؟ فأنت لم تذكره لي سابقاً.

أوضح أبي:

ـ إنه أقرب أصدقاء ماكس برود. وقد أهدى برود روايته «طريق الرب» له.

تذكرتُ وهتفتُ:

ـ لكنه مؤلف قصة «التحول» الرائعة. هل تعرفه؟

أومأ أبي برأسه.

ـ إنه في قسمنا القانوني.

ـ وماذا قال عن قصائدي؟

ـ أطراها. اعتقدتُ بأنه كان مؤدباً. لكنه طلب مني تقديمك له. لذا أخبرته بأنك ستأتي اليوم.

ـ لذا فهي الزيارة التي تكلمت عنها.

ـ نعم تلك هي الزيارة أنت أيها المؤلف التافه.

نزلتُ مع أبي إلى الطابق الثاني، إذ دخلنا مكتباً كبيراً جداً ومرتباً.

وراء اثنين من الطاولات المنتصبة جنباً إلى جنب جلس رجلٌ طويلٌ نحيف. شعره أسود مسرّح للخلف، وأنفه أعجف وعيناه زرقاوان رماديتان تحت جبين ضيق بشكل مدهش، وشفتاه مبتسمتان تنمان عن مزيج الألم والسعادة.

وبدلاً من الترحيب بنا قال:

ـ هذا هو بالتأكيد.

قال أبي:

ـ نعم هو.

مدّ الدكتور كافكا يده لي.

ـ لا يحتاج أن تخجل أمامي. أنا أيضاً لديّ قائمة كهرباء طويلة.

ضحك وتلاشى خجلي.

قلتُ في سرّي:

ـ إذن هذا هو خالق الحشرة الغامضة سامسا.

وانقشع الوهم حين رأيتُ أمامي رجلاً بسيطاً مهذب السلوك.

قال فرانتس كافكا:

ـ هناك الكثير من الضجيج في قصائدك.

حين تركنا أبي وحدنا في المكتب. أضاف:

ـ إنها ثمرة الشباب التي هي مؤشر على فرط النشاط. لذا فإنّ الضجيج جميل بذاته مع أنه لا علاقة له بالفن. على العكس، فإن الضجة تشوّه التعبير. لكنني لست ناقداً، لا أستطيع بسرعة أن أحوّل نفسي إلى شيء مختلف، ثم أعود لنفسي وأقيس المسافة بدقة. كما قلت ـ أنا لستُ ناقداً. أنا مجرد إنسان متفرج ومعرض للحساب.

سألتُ:

ـ والقاضي؟

ندّتْ عنه ابتسامة خجولة.

قال كافكا ضاحكاً:

ـ فعلاً، أنا أيضاً مساعد قضائي للمحكمة، لكني لا أعرف القاضي. من المحتمل إني مساعد قضائي متواضع تماماً. لا أملك مركزاً محدداً.

وضحكتُ معه على الرغم من أنني لم أفهمه.

قال بشكل جدّي:

ـ المعاناة هي الأمر المحدد الوحيد. متى تكتب؟

فاجأني السؤال لذا أجبتُ بسرعة:

ـ في المساء وفي أثناء الليل. أما في النهار فمن النادر. لا أستطيع الكتابة في أثناء النهار.

ـ النهار سحر عظيم.

ـ يزعجني الضوء والمعمل والبيوت والنوافذ على الطريق. معظمها في الضوء. الضوء يربك انتباهي.

ـ ربما هو مستخلص من تضاعيف الظلام. من المستحسن أن يهزم الضوء المرء. لولا ليالي السهر المريعة تلك لما كتبتُ أبداً. لكنها تذكرني دائماً مرة أخرى بعزلتي في الظلام.

فكّرتُ:

ـ ألم يكن هو الصرصار التعيس في قصة «التحوّل».

كنتُ سعيداً حين فُتِح الباب ودخل أبي.

***

كان لكافكا عينان رماديتان كبيرتان، تحت حاجبين سوداوين ثخينين. ما برح وجهه الأسمر حيوياً جداً. كان كافكا يتكلم من خلال وجهه.

كان يستطيع أن يعوّض الكلمات بحركة من عضلات وجهه. ابتسامته، تقليص حاجبيه، تقطيب جبينه الضيق، زمّ الشفتين أو مطّهما ـ مثل هذه الحركات هي تعويض عن جمله الملفوظة.

يهوى كافكا الإيماءات، لهذا السبب يقتصد بها. إنّ إيماءته غير متممة للكلام، ومضاعفة للكلمات، لكنها كلمة من لغة حركة مستقلة، وسيلة اتصال، لهذا فهي ليست فعلاً لا إرادياً، بل تعبيراً مدروساً للمغزى.

كان يطوي يديه، ويضع راحتيه الممدودتين على سطح الطاولة، ويميل بجسده للخلف بشكل مريح لكن بتوتر في كرسيّه، وينحني برأسه للأمام بالتزامن مع هزة من الكتفين، ويضغط يده على قلبه، هذه بضعة من

الوسائل المقتصدة المستعملة في التعبير، التي دائماً ما يرفق معها ابتسامة اعتذار، كأنه يقول:

ـ صحيح، وأنا أعترف بأني أؤدي لعبة: مع ذلك يحدوني الأمل بأن لعبتي تسرّك. وأخيراً ـ أخيراً أنا ألعبها لأفوز بفهمك لمدة قصيرة.

قلتُ لأبي:

ـ دكتور كافكا مولع بك جداً. كيف تعارفتما؟

أجاب أبي:

ـ يعرف كل منا الآخر من خلال المكتب. في البداية تعارفنا جيداً بعد رسمي التخطيطي لخزانة فهرس البطاقات. كان دكتور كافكا سعيدا جداً بالنموذج الذي صنعته. بدأنا نتكلم، وأخبرني بأنه فيما بعد الظهر بعد ساعات العمل في المكتب أخذ دروساً من النجار كوم هاوسر في بودبرادغاس بكارولاينتثال. منذ ذلك الوقت كنا نتحدث غالباً عن أمور شخصية. ثم أعطيته قصائدك فأصبحنا أكثر تعارفاً وقرباً.

ـ لماذا لستما صديقين؟

هزّ أبي رأسه قائلاً:

ـ كان خجلاً ومتحفظاً جداً من الصداقة.

* * *

في زيارتي التالية لكافكا سألتُ:

ـ هل ما زلتَ تذهب إلى النجار في كارولاينتثال؟

ـ هل تعرف هذا الأمر؟

ـ أخبرني والدي.

ـ كلا، لم أذهب إليه منذ فترة طويلة. لا تسمح صحتي بالمزيد. جلالة الجسد.

ـ أفهم تماماً. العمل في الورشة المُغبرة لا يسرّ كثيراً.

ـ أنت مخطئ. أحب العمل في الورش. رائحة كشط الخشب، ودندنة المناشير وضربات المطرقة، كل ذلك يسحرني. الأصيل مضى سريعاً. كنت دائماً أندهش حين يأتي المساء.

ـ بالتأكيد أنت مرهق.

ـ مرهق، لكني سعيد. لا شيء أكثر جمالاً من بعض التجارة المباشرة الملموسة والمفيدة بصورة عامة. ما عدا النجارة، فإني عملتُ أيضاً في الزراعة والحدائق. كانت كلها أفضل وتستحق أكثر من العمل القسري الشاق في المكتب. هناك تشعر بشيء من التفوق والأفضلية؛ لكنه مجرد مظهر. في الواقع أن المرء هو أكثر عزلة ولهذا فهو أكثر بؤساً. تلك هي المسألة. العمل الفكري الشاق يمزق الإنسان من المجتمع الإنساني. والصنعة، من جهة أخرى، تؤدي به نحو الناس. يا للأسف إني لم أعد أعمل في الورشة أو الحديقة.

ـ لكنك لن ترغب في التخلي عن مهنتك؟

ـ ولِمَ لا؟ لقد حلمتُ في الذهاب كعامل حقل أو حِرَفياً في فلسطين.

ـ وستترك كل شيء خلفك هنا؟

ـ كل شيء لو أني أعيش حياة لها معنى واستقرار وجمال. هل تعرف الكاتب بول أدلر؟

ـ أعرف كتابه بعنوان «الناي السحري».

ـ إنهُ في براغ. مع زوجته وأطفاله.

ـ ما هي مهنته؟

ـ لا مهنة له. مجرد مُهِمّة. فهو يرحل مع زوجته وأطفاله من صديق إلى آخر. رجلٌ حر وشاعر. في حضوره دائماً تحصل لديّ وخزات ضمير لأني سمحت لحياتي أن تتبدد في مكتب.

* * *

في آيار 1921 كتبت سونيتة نشرها لودفيغ فيندر في ملحق الأحد من صحيفة «بوهيميا».

قال كافكا بهذه المناسبة:

ـ أنت تصف الشاعر كونه إنساناً عظيماً ومدهشاً، قدماه على الأرض، بينما يختفي رأسه في الغيوم. بالطبع هذه صورة عادية تماماً مستقاة من الهيكل الفكري لعقيدة الطبقة الوسطى. إنه وهم يعتمد على تحقيق الرغبة، التي لا علاقة لها بالحقيقة. في الواقع، إنّ الشاعر دائماً أصغر وأضعف من المعدّل الاجتماعي. لهذا فهو يشعر بوطأة الوجود الدنيوي بشكل أكثر تركيزاً وقوة من بقية الناس. فالأغنية بالنسبة له شخصياً مجرد صرخة. الفن بالنسبة للفنان هو مجرد معاناة، يطلق من خلالها نفسه لمعاناة أخرى. إنه ليس عملاقاً، بل تقريباً مجرد طير ذي ريش لامع في قفص وجوده.

سألتُ:

ـ أنت أيضاً؟

قال فرانتس كافكا:

ـ أنا طائر بغيض تماماً. أنا غراب الزيتون ـ كافكا[1]. تاجر الفحم بالقرب من كاتدرائية تاين يمتلك غراباً من الصنف ذاته. هل رأيته؟

ـ نعم. إنه يطير في الخارج حول متجره.

ـ نعم، نسيبي أفضل مني. حقاً أنّ جناحيه قد قُصت. ذلك غير ضروري بالنسبة لي، إذ إنّ جناحيّ أصابهما الضمور. لهذا السبب لم تعد ثمة مرتفعات ومسافات لأطير إليها.أحجل مذهولاً بين زملائي الرجال. إنهم ينظرون لي بشكٍ عميق. وفعلاً أنا طير خطير، سارق، غراب زيتون. لكن ذلك مجرد وهم. في الواقع أفتقد كل شعور بالأشياء المشرقة. لهذا السبب فإني لا أملك ريشاً أسود لامعاً. أنا رمادي مثل الرماد. غراب يتوق إلى أن يختفي بين الصخور. لكن هذا مجرد دعابة لكي لا تلاحظ كيف أن الأمور تسير بشكل سيء معي هذه الأيام.

لم أعد أتذكر كم مرة زرت فرانتس كافكا في مكتبه. لكنّ ثمة شيئاً أتذكره بصورة واضحة جداً: مظهره الجسماني بينما أفتح ـ قبل نصف ساعة من نهاية ساعات الدوام في المكتب ـ باب الطابق الثاني من مؤسسة التأمين على حوادث العمال.

كان يجلس خلف الطاولة، رأسه يميل للخلف، وساقاه ممدودتان

(1) كافكا تعني غراب الزيتون أو الزاغ الزرعي باللغة التشيكية ـ م

للأمام، يداه تستندان على الطاولة. كانت لوحة «قارئ دوستويفسكي»[1] لفيلا تمثل شيئاً من الموقف الذي اتخذه. من وجهة النظر هذه ثمة شبه كبير بين لوحة فيلا ومظهر كافكا الجسماني. مع ذلك فهو شبه خارجي خالص. ما وراء الشبه الخارجي يكمن اختلاف داخلي كبير.

كان قارئ فيلا قد استبدّ به شيءٌ ما، بينما عبّر موقف كافكا عن استسلام إرادي غالب. كانت تلهو على شفتيه الرقيقتين ابتسامة لطيفة، أشبه بانعكاس لبعض المتعة الغريبة القصية بدلاً من أن تكون تعبيراً عن سعادة خاصة. كانت العينان تنظران إلى الناس قليلاً من الأسفل للأعلى. لهذا فإنّ كافكا كان له مظهرٌ فريدـ كأنه يعتذر لكونه نحيفاً وطويلاً. بدا جسدهُ الكامل وكأنه يقول: «أنا غير مهم تماماً، اغفرْ لي. سوف تقدم لي متعة كبيرة لو تغاضيت عني».

كان صوته متردداً، جهيراً خافتاً، رخيماً مدهشاً، على الرغم من أنه لم يخلّف مجالاً متوسطاً في القوة والدرجة. الصوت، الإيماءة، النظرة، كلها كانت تشع بالسلام والتفاهم والطيبة.

كان يتكلم كل من التشيكية والألمانية. لكن على الغالب الألمانية. وكانت ألمانيته لها لهجة متصلبة، مثل الألمانية التي يتكلمها التشيك. مع ذلك فإنّ التشابه باهت غير دقيق؛ في الواقع كانا مختلفين تماماً.

اللهجة التشيكية للألمان التي أفكر بها كانت خشنة. فالأصوات اللغوية كأنها قُطّعت إلى قطع. وكلام كافكا لا يعطي أبداً هذا الانطباع. فهو يبدو خشناً إذ كل كلمة كأنها صخرة. صلابة كلامه نشأت من جهد الضبط

(1) لوحة رسمها الفنان أميل فيلا عام 1907 بالزيت على القماشة بأبعاد 98.5 * 80سم ـ م

والدقة. لهذا كانت تُقاس بالميزات الشخصية الإيجابية وليس بالميزات الجماعية. فكلامه كان يشبه يديه.

كان يمتلك يدين قويتين، وراحتين عريضتين، وأصابع رقيقة ولطيفة، مع أظافر مسطحة ملعقية الشكل، وعظام ومفاصل بارزة ورقيقة.

حين أتذكر صوت كافكا وابتسامته ويديه، أفكر دائماً بملاحظة لأبي.

قال:

ـ القوة مرتبطة بالرهافة الدقيقة: القوة التي تجد الأشياء الصغيرة أشد صعوبة.

***

بعد ثلاثة أسابيع من أول لقاء مع فرانتس كافكا ذهبت في نزهتي الأولى معه.

أخبرني في المكتب أن أنتظره الساعة الرابعة عند نصب «هُس» التذكاري في «دائري ألتستادتر»، وأنه سوف يعيد كتاب تمارين القصائد الذي أعرته إياه.

حضرتُ في المكان والزمان المعينين، لكن فرانتس كافكا كان قد تأخر لمدة ساعة.

اعتذر قائلاً:

ـ لا أستطيع الحفاظ على الموعد بصورة دقيقة. دائماً أنا متأخر. قررتُ أن أكون في الوقت المحدد، كان لديّ قصد طيب وشريف في الحفاظ على الموعد حسب الاتفاق، لكن الظروف أو جسدي يدمران دائماً هذا القصد، كي يبرهنا لي على ضعفي. من المحتمل أنّ ذلك هو أصل مرضي.

مشينا حول «دائري ألتستادتر».

قال كافكا إنه من الممكن نشر بعض قصائدي. رغب أن يعطيها إلى أوتو بيك.

قال:

ـ لقد تبادلنا الجدل حولها.

رجوته أن لا ينشر القصائد.

وقف كافكا جامداً.

ـ إذن أنت لا تكتب لكي تنشر؟

ـ كلا. قصائدي هي مجرد محاولات متواضعة جداً، لكي أبرهن لنفسي بأنّي لست أحمق تماماً.

واصلنا السير. أراني فرانتس كافكا مخزن أهله وبيتهم.

قلت:

ـ إذن أنت ثري.

زمّ فرانتس كافكا فمه.

ـ من هم الأثرياء؟ إنّ قميصاً قديماً هو ثروة بالنسبة للبعض. الآخرون فقراء مع امتلاكهم عشرة ملايين.الثروة هي شيء نسبي تماماً وغير مقنع. أساساً، إنها حالة خاصة. الثروة تستلزم الاعتماد على الأشياء التي يمتلكها المرء، ويجب أن تكون محصّنة ضد الانحسار نتيجة ممتلكات جديدة واعتماد إضافي. إنها مجرد تداعٍ مادي. لكن كل ذلك يعود إلى والديّ وليس لي.

انتهت نزهتي مع فرانتس كافكا بالطريقة التالية:

طوافنا حول الدائري أرجعنا إلى قصر كنسكي. إذ برز من مستودع، فيه لافتة تجارية مدون فيها اسم «هيرمان كافكا»، رجل طويل وعريض يرتدي معطفاً غامقاً وقبعة فاتحة. بقي واقفاً ينتظر على بعد خمس خطوات منّا.

حين أتينا بالقرب منه على بعد ثلاث خطوات، قال الرجل بصوت عالٍ:

ـ فرانتس عُدْ إلى البيت فالهواء رطب.

قال كافكا بصوت رقيق غريب:

ـ أبي قلق عليّ. الحب غالباً ما يرتدي زيّ العنف. تعال لتراني.

انحنيتُ احتراماً. فارقني فرانتس كافكا دون أن يصافحني.

***

زرتُ فرانتس كافكا في مكتبه في اللحظة نفسها التي وصلتْ فيها بالبريد نسخة تجريبية من كتابه القصصي «في مستعمرة العقاب». فتح كافكا المغلّف، دون أن يعرف محتوياته. لكن حين فتح المجلد الأخضر والأسود المربوط وتعرّف على كتابه، كان واضحاً أنه أصيب بالارتباك.

فتح دُرج طاولته، نظر لي، وأغلق الدُرج، وسلّمني الكتاب قائلاً:

ـ أكيد أنك ترغب في أن ترى الكتاب.

أجبتُ بابتسامة وفتحتُ المجلد، ووجهتُ نظرة سريعة إلى الطباعة والورق ثم أرجعتُ له الكتاب، حين أدركتُ توتره العصبي قلتُ:

ـ إنه كتاب جميل. حقاً أنه نموذج لإنتاج مطبعة دروغولن. لا بدّ من أنك مقتنع يا دكتور.

قال كافكا:

ـ الواقع أني غير مقتنع.

ودفع الكتاب بشكل مهمل داخل الدُرج وأغلقه. ثم قال:

ـ يضايقني دائماً نشر بعض ما كتبتُ على عجل.

ـ إذن لماذا تسمح بطبعها؟

ـ ذلك هو الأمر تماماً! ماكس برود وفليكس فيلتش وكل أصدقائي دائماً يستولون على ما كتبته ثم يفاجئونني بعقدٍ كامل مع الناشر. لا أريد أن أسبب لهم ضيقاً، لذا يؤول الأمر إلى نشر أمور هي عبارة عن ملاحظات شخصية تماماً أو تلهيات. التجارب الطباعية الشخصية عن ضعفي الإنساني قد طُبِعت وحتى أنها بيعت، لأنّ أصدقائي، وماكس برود على رأسهم، كانوا يفكرون في خلق الأدب منها، لأنّي لا أمتلك القوة لتدمير هذا الدليل على العزلة.

بعد وقفة قصيرة قال بصوت مختلف:

ـ ما قلتهُ توّاً هو مبالغة طبعاً، وجزء من الحقد موجه ضد أصدقائي. أنا فاسد جداً وغير خجل بأني بنفسي تعاونتُ في نشر هذه الأشياء. وكتبرير لضعفي جعلتُ الظروف أقوى مما هي في الواقع. ذلك جزء من الخداع. لكن في النهاية أنا محامٍ. لذا لا أستطيع أبداً أن أبتعد عن الشر.

***

كان كافكا معجباً بالشباب. وروايته «الوقّاد» مليئة بالرقة والتعاطف. أخبرته بهذا بينما كنا نناقش الترجمة التشيكية التي قامت بها «ميلينا يسنسكا» والتي ظهرت في المجلة الأدبية «كمن» ـ الساق.

ـ هناك الكثير جداً من شروق الشمس والابتهاج في قصتك. الكثير جداً من الحب ـ مع أنه لم يُذكر أبداً.

قال كافكا بشكل رزين:

ـ لا توجد في القصة، بل في موضوع القصة ـ الشباب. الشباب مليء بشروق الشمس والحب. الشباب سعيد لأنّ لديه القابلية على رؤية الجمال. وحين تُفقد تلك القابلية تبدأ الشيخوخة البائسة والاضمحلال والتعاسة.

ـ إذن العمر يستثني إمكانية السعادة؟

ـ كلا، السعادة تستثني العمر.

ابتسم وأحنى رأسه للأمام كأنه يخفيه بين كتفيه المحدودبين. وأضاف:

ـ أي فرد يحتفظ بالقابلية على رؤية الجمال لن يشيخ أبداً.

كانت ابتسامته ووضعه وصوته تذكّر بالصبي الهادئ الدمث.

ـ إذن أنت في رواية «الوقّاد» شاب وسعيد جداً.

وما إن انتهيت بصعوبة من الجملة حتى أظلمّ تعبير وجهه.

أسرعتُ في الإضافة:

ـ رواية «الوقّاد» جيدة جداً.

لكنّ عيني فرانتس كافكا الرماديتين الغامقتين امتلأتا بالأسى.

ـ أحدهم يتكلم بشكل أفضل حول ما هو غريب. يراها أحدهم بشكل أوضح. رواية «الوقّاد» هي ذكرى حلم، تدور حول شيء ربما

هو غير موجود مطلقاً. كارل روسمان[1] ليس يهودياً. لكننا نحن اليهود ولدنا شيوخاً.

* * *

في مناسبة أخرى حين أخبرتُ الدكتور كافكا عن جريمة شاب، ناقشنا مرة أخرى قصته «الوقّاد».

سألتُ إن كانت شخصية كارل روسمان الذي عمره 16 سنة مقتبسة من الحياة.

قال فرانتس كافكا:

ـ كان لديّ عدة نماذج. لكن كل ذلك في الماضي.

قلتُ:

ـ شخصيتا الشاب روسمان، وذلك الوقّاد مفعمتان بالحياة.

أظلمّ تعبير كافكا.

ـ ذلك مجرّد حصيلة ثانية. لم أكن لأصف الناس. كنتُ أروي قصة. إنها صور، مجرد صور.

ـ إذن لا بدّ أن يكون هناك نموذج. شرط الصورة هي الرؤية.

ابتسم كافكا.

ـ أحدهم يصوّر الأشياء لكي يحصل عليها من عقل الفرد. قصصي نوع من إغماض عيني المرء.

* * *

(1) بطل رواية «الوقاد» وقد ترجمت إلى العربية بعنوان «أمريكا».

كانت الأحاديث حول مؤلفاته دائماً قصيرة جداً.

ـ لقد قرأت قصة «الحُكم».

ـ هل أعجبتك؟

ـ أعجبتني؟ الكتاب مروّع.

ـ أنت على حق تماماً.

ـ أود أن أعرف كيف تسنى لك كتابتها. الإهداء «إلى ب.» ليس بالضرورة رسمياً. بالتأكيد أردتَ من الكتاب أن يقول شيئاً ما عن شخصٍ ما. أود أن أعرف السياق.

ابتسم كافكا وشعر بالارتباك.

ـ لقد كنتُ سفيهاً. اغفر لي.

ـ يجب أن لا تعتذر. أنا أقرأ لكي أطرح الأسئلة. إن قصة «الحُكم» هي شبح ليلة ما.

ـ ماذا تقصد؟

كرّر القول مع نظرة إلى المدى:

ـ هي شبح.

ـ ومع ذلك كتَبتها.

ـ ذلك تحقّقٌ من الشبح ومن ثم طردٌ كامل له.

* * *

صديقي الفريد كامبف، من ألتساتل قرب فالكيناو، الذي تعرفت عليه في ألبوغن، كان معجباً بقصة «التحوّل». وصف مؤلفها كونه «جديداً وأكثر عمقاً ومغزىً من أدغار آلان بو».

خلال نزهة مع كافكا في دائري «ألتستادتر» أخبرتهُ حول هذا المُعجب الجديد به، لكنه لم يعرْ انتباهاً ولا فهماً. بالعكس، أظهر تعبير كافكا بأنّ أي مناقشة لكتابه كان مبعث اشمئزاز له. غير أني كنتُ مليئاً بحماسة الاكتشافات لهذا كانت تعوزني اللباقة.

قلتُ:

ـ بطل القصة يدعى سامسا.يبدو اسمه تشفيراً لاسم كافكا. خمسة حروف في كل كلمة. حرف س في كلمة سامسا له نفس موقع حرف ك في كلمة كافكا. حرف أ...

قاطعني كافكا قائلاً:

ـ إنها ليست شفرة كتابية. إنّ سامسا ليس كافكا بالضرورة ولا شيء آخر. قصة «التحوّل» ليست اعترافاً على ألرغم من أنها، بمعنى معين، عملٌ طائش.

ـ لا أعرف شيئاً عن ذلك.

ـ أليس من الكياسة والحصافة أن تتحدث عن الحشرات في العائلة؟

ـ أمرٌ غير مألوفٍ في المجتمع.

ـ ها أنت ترى كم لديّ من العادات السيئة.

ابتسم كافكا. رغب أن يصرف النظر عن الموضوع. لكني لم أرغب بذلك.

قلتُ:

ـ يبدو لي أنّ الفرق بين العادات الحسنة والسيئة من الصعب تطبيقه هنا. رواية «التحوّل» حلم فظيع، وخيال مريع.

نهض كافكا ساكناً.

ـ يكشف الحلم عن الحقيقة التي تخلّفَ عنها الخيال. ذلك هو رعب الحياة ـ رعب الفن. لكني يجب أن أذهب الآن إلى البيت.

ودعني وداعاً جافاً.

قلتُ في سرّي:

ـ هل تسببتُ في رحيله؟

وشعرتُ بالخجل.

***

لم نرَ أحدنا الآخر لمدة أسبوعين. أخبرته حول الكتب التي «التهمتها» في هذه الأثناء. ابتسم كافكا.

ـ يمكن استخلاص كتب كثيرة جداً من الحياة، لكن القليل جداً من الحياة يمكن استخلاصه من الكتب.

ـ إذن هل الأدب هو مادة حافظة رديئة؟

ضحكَ وهزّ رأسه.

***

فوجئتُ بفرانتس كافكا في مكتبه وهو يطّلع على فهرس كتب دار نشر «ركلام».

قال كافكا:

ـ تسكرني عناوين الكتب. الكتب مخدّرات.

فتحتُ حقيبتي وأظهرت له محتوياتها.

ـ إنا مدمن حشيشة سيدي الدكتور.

فتعجّب كافكا.

ـ ليس سوى كتب جديدة!

أفرغتُ الحقيبة على طاولته الكتابية. تناول كافكا الكتب واحداً بعد الآخر، وتصفحها وقرأ فقرة هنا وأخرى هناك، ثم أرجعها لي.

ـ هل ستقرأ كل ذلك؟

أومأتُ برأسي.

زمّ كافكا شفتيه.

ـ أنت تقضي الكثير من الوقت على الأمور الزائلة. أغلب الكتب الحديثة هي مجرد تأملات مضطربة في الحاضر. فهي تختفي بسرعة. يجب أن تقرأ المزيد من الكتب القديمة. الكلاسيكيات. غوته. الجديد هو الأكثر أفولاً من بين كل الأشياء. إنه جميل اليوم ولكن غداً يصبح مضحكاً فحسب. تلك هي طريقة الأدب.

ـ والشعر؟

ـ الشعر يحوّل الحياة. أحياناً نحو الأسوأ.

طرقة على الباب. ودخل أبي قائلاً:

ـ هل أصبح ابني ووريثي مصدر إزعاج؟

ابتسم كافكا.

ـ أوه كلا. نحن نناقش الشياطين والجنّ.

* * *

لاحظ كافكا حاجتي إلى النوم. أخبرته بإخلاص تام:

ـ كنتُ مفعماً بالأمور التي كتبتها حتى الصباح.

وضع كافكا يديه الكبيرتين على قمة الطاولة كأنهُ ينجر خشباً وقال ببطء:

ـ تلك سعادة كبيرة، أن تكون قادراً على الكشف عن مشاعرك الداخلية بشكل سهل جداً.

ـ كما لو أنّي سكران. لم أقرأ حتى الآن ما كتبته بالضبط.

ـ بالطبع. ما تمت كتابته هو رواسب التجربة فحسب.

* * *

كتب صديقي أرنست ليدرر قصائد بحبر أزرق فاتح على قطع محفورة من الورق المصنوع يدوياً.

أخبرتُ كافكا عنه.

قال:

ـ ذلك صحيح تماماً.كل ساحر له طقوسه الخاصة. هايدن مثلاً كان يؤلّف فقط مرتدياً شَعراً مستعاراً مكسوّاً بالمسحوق. وأخيراً فإنّ الكتابة هي جلسة لتحضير الأرواح.

* * *

طلب مني فرانتس كافكا عدة مرات أن أُريه «خربشاتي غير المقفاة» ـ كما كنت أصفها بنفسي. لهذا السبب نظرتُ في دفتر ملاحظاتي للعثور على اقتباسات مناسبة، وضعتها مع مجموعة من القطع النثرية القصيرة، وأعطيتها عنوان «لحظة الهاوية» وقدمتها إلى كافكا.

وقد ردّ المخطوطة لي بعد عدة شهور، حين كان يتهيأ للسفر إلى المصحة في «تاترانكف ماتلياري».

وقال لي:

ـ كل قصصك ناشئة على نحو مدهش. أنت تروي انطباعاتك عن الأشياء التي تلهمك أكثر مما تروي عن الأمور والأشياء نفسها. ذلك شعر غنائي. إنك تمسّد العالم بدلاً من أن تمسك به.

ـ إذن كتابتي لا تساوي شيئاً.

أمسك كافكا بيدي.

ـ لم أقل ذلك. بالتأكيد أنّ هذه القصص لها قيمة بالنسبة لك. كل كلمة مكتوبة هي وثيقة شخصية. لكن الفن....

واصلت القول بمرارة:

ـ الفن مختلف.

قال كافكا بحزم:

ـ كتابتك لا تحمل فناً حالياً. إنّ هذه الأوصاف للمشاعر والانطباعات أغلبها تتحسّس العالم بشكل متردّد. ما زالت العينان ثقيلتين مع الأحلام. لكن سرعان ما يتوقف ذلك ثم ربما سوف تنسحب اليد المتلمسة الممدودة

كأنّ النار مسّتها. ربما ستصرخ وتتلعثم على نحو غير متماسك، وتصرّ أسنانك معاً وتفتح عينيك على وسعهما. لكن هذه مجرد كلمات.الفن دائماً قضية تتعلق بالشخصية الكاملة. لهذا السبب هو تراجيدي أساساً.

***

أطلعني فرانتس كافكا على استبيان يتضمن سؤالاً عن الأدب، واعتقد أنّ «أوتو بيك» كان ينجزه لصالح ملحق الأحد لصحيفة «براغر برس». أشار بإصبع سبابته إلى السؤال وقال:

ـ ماذا تقول عن خططك الأدبية في المستقبل؟

وأضاف:

ـ يا له من سؤال أحمق. محتمل إننا لا نستطيع الجواب عن ذلك.

نظرتُ إليه دون أن أفهم.

ـ هل يستطيع المرء أن يتنبأ بأنّ قلبه سوف يخفق غداً؟ كلا، لا يمكن. مع ذلك فإنّ القلم يقيس هزّات القلب. إنه يسجّل الهزات لكنه لا يستطيع أن يتنبأ بها.

***

زرتُ الدكتور كافكا في مكتبه. وكان على وشك أن يغادر حين دخلت.

ـ هل أنت ذاهب؟

ـ لحظة فقط. أعلى بطابقين في قسم أبيك. اجلس وانتظرني. لن أتأخر. في غضون ذلك ألقِ نظرة على هذه المراجعة الجديدة. لقد جاءت بالبريد أمس.

إنها العدد الأول من مجلة كبيرة نموذجية للمراجعات ظهرت في برلين، عنوانها «مارسياس»، ويحررها ثيودور تاغر. كانت داخلها نشرة فيها ملاحظات ومساهمات واعدة، إضافة إلى خبر عن عمل لفرانز فيرفل بعنوان «نثر نظري». كان صديقاً لكافكا، لذا عند عودته إلى المكتب سألتهُ إن كان يعرف أي شيء عن الخبر.

قال كافكا باقتضاب:

ـ نعم. فيرفل أخبر ماكس بأنّ العمل كان من اختراع الناشر.

ـ هل يستطيع المرء أن يفعل مثل هذه الأمور؟ مع ذلك فهي كذبة.

قال الدكتور كافكا مبتسماً:

ـ إنه الأدب. هروب من الواقع.

ـ إذن الشعر كذب.

ـ كلا. الشعر تكثيف، جوهر. الأدب من جهة أخرى هو استرخاء، ووسيلة للمتعة تخفف من حياة اللاوعي، ومخدّر.

ـ والشعر؟

ـ الشعر بالعكس تماماً. الشعر يقظة.

ـ إذن الشعر يميل نحو الدين.

ـ لن أقول ذلك. لكن بالتأكيد نحو الصلاة.

***

أريتُ فرانتس كافكا مخططاً لدراما ثيمتها مقتبسة من الكتاب المقدس.

سأل:

ـ ماذا ستفعل بها؟

ـ لا أعرف. المادة تجذبني، لكن المعالجة... أن أكمل المخطط الآن يبدو بالنسبة لي نوعاً من القص واللصق.

أعطاني كافكا المخطوطة.

ـ أنت على حق. ما يولد يعيش فقط. كل شيء آخر تبديد للزمن: الأدب لا يملك تبريراً للوجود.

***

في الصفحة الرابعة من الأوراق الصفراء الفارغة في نسختي من كتاب «طبيب ريفي»، هناك ملاحظة تالية: «الأدب يكافح من أجل أن يقدم الأشياء بضوء سارّ وجاذب. لكن الشاعر مجبر على السمو بالأشياء إلى عالم الحقيقة والنقاء والدوام. يهدف الأدب إلى الراحة. لكن الشاعر هو باحث عن السعادة، فيكون كل شيء بالأحرى مريحاً.

لا أعرف إن كانت تلك تعليقاً لكافكا أم أني سجلتُ خلاصة أحد الأحاديث بيننا.

***

رحبتُ بكافكا عند رجوعه من زيارته القصيرة إلى صهره في الريف.

ـ إذن ها نحنُ في البيت ثانية.

ابتسم كافكا بشكل حزين.

ـ في البيت؟ أنا أعيش مع والديّ. تلك هي المسألة. صحيح أني لديّ غرفة صغيرة خاصة بي، لكن ذلك ليس بيتاً، بل ملجأ، إذ بإمكاني أن أخفي اضطرابي، لكي أسقط داخل براثنه.

***

أخبرتُ كافكا عن إنتاج مسرحيتين من فصلٍ واحد، مختلفتين جداً في الاسلوب، لمؤلفهما فالتر هاسنكلفر وآرثر شنتسلر التي شاهدتهما في المسرح الألماني الجديد.

قلتُ في نهاية وصفي:

ـ توازن البرنامج رديء. تعبيرية أحد المسرحيتين تفسد واقعية المسرحية الأخرى وبالعكس. ربما لم يُدرَس إنتاج المسرحيتين بصورة كافية.

قال كافكا:

ـ ممكن تماماً. المسرح الألماني في براغ في موقع صعب جداً. فهو يشكل ككل مجمعاً كبيراً للعلاقات المالية والإنسانية التي ليس لها جمهور كبير. إنها هرم من دون أساس. الممثلون تابعون إلى المنتجين الذين سيطرت عليهم الإدارة المسؤولة عن لجنة نادي المسرح. إنها سلسلة فاقدة للرابط الأخير للإمساك به معاً. لا يوجد جمهور ألماني أصيل هنا لهذا لا يوجد مشاهدون مستقلون دائمون. اليهود الناطقون بالألمانية في المقصورات والمقاعد هم أخيراً ألمان، والطلاب الألمان الذين يأتون إلى براغ ويجلسون في الشرفات والأروقة هم بالأحرى حراس مرموقون للسلطة الغازية ـ وليسوا مشاهدين. في مثل هذه الظروف من المستحيل تحقيق عمل فني جدّي. فطاقاتهم مبدّدة على الأمور الطارئة. تبقت فقط

مساع وأعمال من النادر أن تنتهي إلى إنتاج جيد. لهذا لا أذهب إلى المسرح. إنه أمر حزين.

***

كانوا في المسرح الألماني يمثلون مسرحية «الابن» لفالتر هاسنكلفر.

قال فرانتس كافكا:

ـ تمرّد الابن ضد الأب أحدى الثيمات الأولية للأدب، بل كانت المشكلة الأقدم في العالم.كُتبت الأعمال الدرامية والتراجيديات عنها، إلا إنها في الواقع مادة للكوميديا. كان الرجل الأيرلندي سنج[1] محقاً في إدراك هذا. في مسرحيته «فتى الغرب المدلل» يكون الابن مراهقاً مستعرضاً يتفاخر بقتل أبيه. ثم يسرع رجل كبير السن ويجرّد الشاب المسيطر على سلطته الأبوية ليحوله إلى شخصية هزلية.

قلتُ:

ـ أرى أنك مرتابٌ جداً بصراع الشباب والشيوخ.

ابتسم كافكا.

ـ شكّي لا يغيّر من حقيقة أنّ هذا الصراع هو في العادة مجرّد صراع خيالي.

ـ ماذا تقصد بالصراع الخيالي؟

ـ الشيخوخة هي مستقبل الشباب، الذي عاجلاً أم آجلاً لا بدّ أن يبلغها. إذن لماذا الصراع؟ هل لكي يصبح عجوزاً قريباً؟ أم من أجل رحيل أسرع؟

---

(1) كاتب مسرحي إيرلندي (1871 ـ 1909) من مسرحياته: فتى الغرب المدلل، ديردرا فتاة الأحزان.

قطع حديثنا دخول أحد الموظفين.

***

في المسرح الألماني قدم الممثل رودلف شيلدكروت من مسرح هوفت في فيينا أداءً لمسرحية «رب الانتقام» لشولم آش. وتكلمت مع كافكا حولها.

قال كافكا:

ـ يتميز رودولف شيلدكروت كونه ممثلا كبيراً. لكن هل أنه ممثل يهودي كبير؟ في رأيي هذا محل شك. مثّل شيلدكروت أداوراً يهودية في مسرحيات يهودية.لكن بما أنه لم يعد يمثل حصراً باليهودية ويقدمها لليهود بل بالألمانية ويقدمها للجميع، لذا فهو ليس ممثلاً يهودياً مُعبّراً. إنه حالة هامشية، وسطية، يعطي الناس تبصراً لألفة الحياة اليهودية. إنه يوسّع من آفاق اللايهود، دون أن ينير وجود اليهود بأنفسهم. وهذه المهمة يحققها الممثلون اليهود الفقراء الذين يمثلون من أجل اليهود باللغة اليهودية. إنهم يكسحون بفنّهم ترسبات العالم الغريب من حياة اليهود، ويعرضون في ضوء النهار المشرق الوجه اليهودي الخفي المغمور في النسيان، وبذلك يمنحونهم مرساة في مشاكل عصرنا.

أخبرتهُ كيف شاهدتُ في نهاية الحرب تمثيليتين لممثلين يهود جوالين في المقهى الصغير «سافوي» عند «الغايشبلاتس». كان كافكا مندهش جداً.

ـ كيف حدث أن كنتَ هناك؟

ـ مع أمّي. كانت تعيش لمدة طويلة في بولندا.

ـ وما هو رأيك بالمسرح؟

هززتُ كتفي.

ـ أتذكر أني بالكاد فهمتُ اللغة. كانت الأداء باللهجة. لكن أمي أعجبتْ بالممثلين.

نظر كافكا إلى المدى.

ـ اعتدتُ على معرفة الممثلين اليهود في مقهى سافوي. ذلك قبل عشر سنوات. وكانت لديّ صعوبات مع اللغة. ثم اكتشفتُ بأنّي فهمتُ اليديشية[1] أكثر مما أتخيل.

قلتُ متباهياً:

ـ أمي تتكلم اليديشية بطلاقة.

أخبرتهُ كيف كنتُ وأنا في السادسة من عمري مع أمي في «شفارتسغاس» بالحي اليهودي لبرتسميسل. وكيف أنه خارج البيوت القديمة ودكاكين أوتل المظلمة كان الرجال والنساء يهرعن ويقبلن يد أمي وحاشية معطفها، ضاحكين وباكين وصائحين:

ـ سيدتنا الطيبة! سيدتنا الطيبة!

علمتُ لاحقاً بأنّ أمّي قد أخفت العديد من اليهود في بيتها خلال المذابح المدبرة ضدهم.

قال فرانتس كافكا، حين انتهيت من سرد ذكرياتي:

---

(1) لغة جرمانية يتحدثها ما يقارب 3 ملايين شخص حول العالم، وأغلبيتهم يهود اشكنازية (غربيين) ـ م

ـ وأنا أريد أن أهرع إلى أولئك اليهود الفقراء في الغيتو، وأقبّل حاشية معاطفهم، ولا أقول كلمة. سأكون سعيداً تماماً لو أنهم سيتحملون وجودي بصمت.

قلتُ:

ـ هل أنت وحيد؟

هزّ كافكا رأسه.

قلتُ:

ـ مثل كاسبر هاوزر[1]؟

ضحك كافكا.

ـ أكثر سوءاً من كاسبر هاوزر. أنا وحيد مثل فرانتس كافكا.

* * *

بينما كنا ـ أنا وكافكا ـ نسير عبر «دائري ألتشتادر» ناقشنا مسرحية ماكس برود «المزوّر». أوضحتُ لكافكا أفكاري حول إنتاجها. ووصلنا في مناقشتنا إلى نقطة في المسرحية إذ يغيّر دخول امرأة من الموقف بأكمله. كانت فكرتي بأن الشخصيات على المسرح يجب أن يتراجعوا ببطء حين تدخل، لكن كافكا لم يتفق معي.

---

(1) كاسبر هاوزر شاب ألماني يُدعى أنه نشأ في عزلة تامة بزنزانة مظلمة. مزاعم هاوزر، ومصرعه طعناً لاحقا، أثار الكثير من النقاش والجدل. النظريات المطروحة آنذاك وصلته بالعائلة الأميرية في دوقية بادن الكبرى. الأمر الذي يرفضه المؤرخون المحترفون منذ فترة طويلة ـ م.

قال:

ـ يجب أن ينسحبوا كلهم كأنهم أُصيبوا بصاعقة.

اعترضتُ قائلاً:

ـ سيكون ذلك مسرحياً جداً.

لكن كافكا هزّ رأسه.

ـ هكذا يجب أن يكون الأمر. الممثلون ينبغي أن يكونوا مسرحيين. لكي تخلق التأثير المرغوب فلا بدّ أن تكون عواطفهم وأفعالهم أكبر من مشاعر وأفعال جمهورهم. لو أنّ للمسرح تأثيراً على الحياة، فلا بدّ أن يكون أقوى، وأكثر تركيزاً من الحياة الاعتيادية. ذلك قانون الجاذبية. يجب أن يكون هدف المرء في التصوير أسمى من الإشارة.

***

كان مسرح براغ شتاند يؤدي مسرحية ثورية بعنوان «تانجا» لأرنست فايس، الذي كان صديقاً لماكس برود. حين أخبرتُ كافكا عن المسرحية التي شاهدتها، قال:

ـ المشهد الأجمل هو مشهد الحلم مع طفل تانجا. المسرح يصنع تأثيره الأقوى، حين يحوّل الأشياء غير الواقعية إلى واقعية. يصبح المسرح منظاراً للروح، وينير الحقيقة من الداخل.

***

أخذتُ كتاباً معي إلى مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال. كان عنوانه «حورية برأسين» لكاسيمير أدشميت، الذي بحث كافكا في أحد فصوله المعنون: «ثيودور دوبلر والمدرسة التجريدية».

سألته:

ـ هل رأيت هذا الكتاب؟

هزّ فرانتس كافكا رأسه.

ـ لقد لفت انتباهي.

ـ وما رأيك فيه سيدي الدكتور؟

هزّ فرانتس كافكا كتفيه وأومأ بيده اليمنى إشارة يائسة.

ـ يتكلم أدشميت عني كأني كنتُ مهندساً. بينما أنا مجرد مصمم متواضع أخرق. يزعم بأني قدمتُ معجزات من الأحداث العادية. وهذا، بطبيعة الحال، خطأ شنيع من ناحيته. العادي بنفسه معجزة! كل ما فعلته أني سجلته فقط. من الممكن أني أيضاً أنرتُ مواضيع قليلة، مثل إضاءة مسرح نصف مظلم. وذلك غير صحيح! في الواقع أنّ المسرح غير مظلم مطلقاً. فهو مليء بضوء النهار. لذا فإن الناس يغمضون أعينهم ويرون القليل جداً.

قلتُ:

ـ هناك غالباً فرق مؤلم بين الإدراك والحقيقة.

هزّ كافكا رأسه.

ـ كل شيء صراع وجهد. أولئك الذين يتغلبون عليه في كل يوم يستحقون الحب والحياة.

كانت هناك وقفة قصيرة. ثم أضاف برقة مع ابتسامة ساخرة:

ـ يقول غوته...

ـ يوهان فولفغانغ فون غوته؟

هزة سريعة من الرأس.

ـ غوته يقول بشكل عملي كلّ شيء يهمُّنا نحن البشر.

ـ أخبرني صديقي ألفرد كامبف بأنّ أزفالد شبنغلر قد أخذ مبدأ «انهيار الغرب» من مسرحية «فاوست» لغوته.

قال فرانتس كافكا:

ـ ذلك ممكن تماماً. العديد مما يسمون العلماء ينقلون عالم الشاعر إلى مستوىً علميّ آخر، وبذا يحققون الشهرة والأهمية.

***

كنتُ مع كافكا في المكتب. وكان معي كتاب «أغاني المشانق» لكرستيان مورغنشتم.

سألني كافكا:

ـ هل تعرف قصائده المهمّة جداً؟ «الزمن والأبدية»؟ «خطوات»؟

ـ كلا. ليس لديّ فكرة بأنه كتب قصائد مهمة.

ـ مورغنشتم هو شاعر مهم جداً. وقصائده مهمة إذ إنه في مجموعة «أغاني المشانق» قد أنقذ نفسه من خطرها البربري.

***

الشاعر الألماني من براغ يوهانز أورتسيديل جمع ونشر قصائد لصديقه الميت الذي بالكاد بلغ العشرين من عمره. سألت فرانتس كافكا إن كان يعرف الصديق الراحل. لم أعد أتذكر ردّه ما عدا كلماته الأخيرة.

ـ كان أحد الشباب التعساء الذي أضاع نفسه بين يهود المقهى الهرمين ـ المئويين ـ ومات.ما الذي كان بإمكانه أن يفعل؟ في زمننا المقاهي هي سراديب الموتى لليهود. دون نور وبلا حُب. لا يمكن لأحد أن يتحمل ذلك.

***

صادفتُ لأول مرة اسم اللقيط الغامض كاسبر هاوزر، الذي ظهر في نورمبرغ سنة 1828، في قصائد غيورغ تراكل. أعارتني ليديا هولتسنر لاحقاً رواية واسرمان الطويلة بعنوان «كاسبر هاوزر» أو القلب البليد».

وفي تلك المناسبة علّق كافكا:

ـ إنّ كاسبر هاوزر في رواية واسرمان لم يعد لقيطاً منذ مدة طويلة.فهو الآن قد أجيز شرعاً واستقرّ في العالم وسُجّل من الشرطة كدافع للضريبة. إضافة إلى أنه قد تخلى عن اسمه القديم. إنه الآن يسمى جيكوب واسرمان، روائي ألماني وربّ بيت.وهو أيضاً يعاني بالسرّ من بلادة القلب، التي تعطيه وخزات الضمير. لكنه ألّفها بنثر مثمر، فكلها تعد بالأفضل.

***

كان أبي يهوى قصائد النثر لألتنبرغ. ومتى ما عثر على تلك المقطوعات الصغيرة في الصحيفة يقوم بقصها وحفظ ما قصّه بعناية في مجلد خاص.

حين أخبرت فرانتس كافكا بهذا، انحنى للأمام، وضغط يديه المتشابكتين بين ركبتيه، وقال برقة:

ـ ذلك جميل. ذلك جميل جداً. دائماً كنتُ أحبُّ أباك كثيراً. للوهلة الأولى يبدو في غاية البرود والابتذال.يعتقد المرء بأنه موظف كادح

وبارع. مع ذلك حين يتعرف المرء عليه بصورة أفضل يكتشف بأنّ تحت مظهره الخادع يكمن ينبوعٌ حيٌّ من الإنسانية الدافئة.

إنّ أباك ـ على الرغم من معرفته ـ يمتلك خيالاً جامحاً ذا إبداع حيّ. لهذا فهو يحبُّ الشعر. بالنسبة لبيتر ألتنبرغ فهو شاعر بحقّ. حكايته الصغيرة تسرد مجمل حياته. وكل خطوة وإيماءة يصنعهما تضمنان صدق كلماته. بيتر ألتنبرغ يصنع موهبة من التوافه، وهو مثالي غريب يكتشف جمال العالم مثل أعقاب السجائر في منافض المقاهي.

***

بعد الحرب العالمية الأولى مباشرةً كانت الرواية الألمانية الأكثر نجاحاً هي رواية «الغولم» لغوستاف مينك. أدلى كافكا برأيه عن الرواية:

ـ إن جوّ الحي اليهودي القديم في براغ يُعاد وصفه بطريقة عجيبة.

ـ هل ما زلتَ تتذكر الحي اليهودي القديم؟[1]

ـ في الحقيقة أنا أتيت حين كان الحي قد اختفى. لكن.....

أشار كافكا بيده اليسرى كأنه يقول:

ـ أي خير فعله.

فأجابت ابتسامته:

ـ لا شيء.

---

(1) ما زال الحي اليهودي القديم، الذي يقع في ذلك الجزء من براغ، يُعرف باسم «يودنشتاد» أو «يوزفشتاد» وقد تم تدميره وأعيد بناؤه في نهاية القرن الماضي. كان موطناً لليهود من تاريخ أول مستوطنة لهم في براغ، وكان هناك معبد يهودي في بواكير عام 1124. وهو مفصول عن المدينة ببوابات تُغلق في الليل.

ثم واصل الكلام:

ـ ما يزال يعيش فينا كلنا ـ الزوايا المظلمة، الأزقة السرية، النوافذ المغلقة، الأفنية القذرة، الحانات الصاخبة، الخانات المشؤومة. نمشي في الشوارع العريضة للبلدة التي بنيت حديثاً. لكن خطواتنا ونظراتنا غامضة. نرتجف داخلنا كما قبل في الشوارع القديمة لبؤسنا. قلوبنا لا تعرف شيئاً عن تصفية حي الفقراء الذي أُنجِز. المدينة اليهودية القديمة الفاسدة داخلنا هي أكثر واقعية من المدينة الصحية الجديدة حولنا. سرنا بعيون مفتوحة عبر حُلم: أنفسنا مجرد شبح من العصر الهارب.

***

في متجرٍ بالٍ للكتب عثرتُ على ترجمة تشيكية لكتاب «دم الفقراء» لليون بلوي.

كان فرانتس كافكا مهتمّا جداً باكتشافي. قال:

ـ أعرف كتاباً لليون بلوي ضد السامية بعنوان «الخلاص عبر اليهود». وفيه يضع أحد المسيحيين اليهود ـ مثل أقرباء فقراء ـ تحت حمايته. إنه أمر مثير. بعد ذلك يمكن لبلوي أن يصب اللعنة. ذلك شيء استثنائي تماماً. لدى بلوي نارٌ تذكّر المرء بحماسة الأنبياء. ما أقوله إن بلوي أفضل كثيراً في اللعن. وذلك الأمر ممكن فهمه بسهولة، لأن النار تتغذى بواسطة قذارة العصور الحديثة كلها.

***

أعطاني فرانتس كافكا مقالة وجيزة عن سورين كيركيغارد كتبها كارل دالاغو. وقال بهذه المناسبة:

ـ يواجه كيركيغارد المشكلة، أمّا من أجل أن يتمتع بالحياة بشكل جمالي أو لكي يمارسها على نحو أخلاقي. لكن هذا يبدو لي إفصاحا زائفا عن المسألة. إن «إما/ أو» موجودة فقط في رأس سورين كيركيغارد. في الواقع يمكن للمرء أن يحقق متعة جمالية من الحياة كنتيجة للتجربة الأخلاقية المتواضعة.لكن ذلك مجرد رأي شخصي للحاضر، ربما يتوجب عليّ أن أتركه بعد بحث محكم.

***

أحياناً كنتُ مع كافكا نلتقي بهانز كلاوس، الذي قابلته سابقاً في المدرسة، لكنه في ذلك الحين لم يكن معروفاً، لأنه كان أكبر مني بعدة سنين. إضافة إلى أنه كان مشهورا سابقاً كونه مؤلف عدد من القصائد والقصص. بالمقارنة معهُ فإني كنتُ مجرد صبي مدرسة صغيراً فجّاً. مع ذلك بدا لي بأن فرانتس كافكا تحدث معي كصديق أكثر مما تحدث إلى كلاوس. كنت مسروراً بذلك، وفي الوقت نفسه خجلاً من نفسي.

سألتُ نفسي:

ـ هل أنتَ مجرد طفل للدكتور كافكا؟

وأكدت لنفسي مرة أخرى فوراً:

ـ من المحتمل أنك تتصور بأنّه كان أكثر ودّاً لك من كلاوس. كنتُ أشعر بالقلق. لذا في أحد الأيام استدرتُ إلى كافكا بينما كنتُ أصحبهُ من المكتب عبر دائري ألتشتاتدر.

ـ ماذا تعتقد يا دكتور كافكا هل أنا تافه؟

كان كافكا مندهشاً.

ـ ما الذي يدعوك إلى أن تفكر بهذا السؤال؟

ـ يبدو لي بأنك أكثر وداً لي مما لكلاوس. ذلك يثير فيّ السرور. إنه يجعلني في منتهى السعادة. في الوقت نفسه قلتُ لنفسي بأنّ تلك مجرّد همسات الغرور.

أخذني كافكا من ذراعي.

ـ إنك طفل.

بدأ ذقني يرتجف.

ـ انظر، سيدي الدكتور، دائماً أفكّر بأنك طيبٌ معي لأن ما زلتُ طفلاً أحمق فجّاً.

قال فرانتس كافكا:

ـ أنت بالنسبة لي رجل شاب. لديك إمكانيات للمستقبل فقدها آخرون مسبقاً. الناس يعنون الكثير بالنسبة لك بحيث إنّ عليك أن تراقب نفسك عن كثب، لكي لا تخسرها. بالتأكيد أنا أكثر وداً لك من كلاوس. أخيراً أنا أتكلم عن ماضيّ الخاص حين أتكلم إليك. لا يستطيع المرء إلاّ أن يكون ودوداً. ثمّ، أنت أصغر من كلاوس، لذا تحتاج إلى المزيد من الفهم والحب.

***

منذ ذلك الحين وصاعداً تغيرت علاقتي بكروس. أصبحنا صديقين وفيين. قدمني إلى صاحبيه الأدبيين، الدكتور رودولف ألتشول والمعماري كونستانتين أهنه، الذي نشر قصائد باسم هانس تاين كانتون.

تبادلنا الزيارات بيننا، وذهبنا إلى المسرح، وقمنا بنزهات، وتبادلنا إعارة الكتب والجدال والإعجاب بيننا.

هكذا أُسّستْ جماعة سُمّيت «بروتست ـ احتجاج» مع ترتيب لقراءات مسائية لأعمالها الخاصة في «موتسارتوم».

رغبنا أن نقدّم فرانتس كافكا للجمهور؛ لكنه رفض بشدّة.

قال لي:

ـ لا بدّ إنك مجنون! جماعة «احتجاج» أجيزتْ وصدّقتْ الشرطة عليها! إنه أمر لا معقول وحزين. إنه أسوأ من تمرّد حقيقي، لأنه مجرد هيجان زائف. لكني على أي حال غير محتج. أرغب أن أقبل بكل شيء وأتحمله بصبر، لكني لن أقبل استعراضاً عاما بمثل هذا النوع.

أسرعتْ لأوضّح بأني لا علاقة لي مع ألتشول وكلاوس وأهنه. تفرّق الثلاثي. كان كافكا يعني لي أكثر من غروري الخاص.

***

حين تخاصمنا، بعد بضعة أشهر، أنا وهانس كلاوس أخبرتُ كافكا، الذي أصغى لي بهدوء، ثم هزّ كتفيه وقال:

ـ الآن ترغب بنصيحة مني. لكني لستُ ناصحاً جيداً. تبدو كل نصيحة لي في جوهرها خيانة[1]. إنها تراجعٌ جبان عن مواجهة المستقبل، الذي هو محكّ لحاضرنا. لكن فقط أولئك الذين يخشون أن يوضعوا أمام البرهان لديهم ضمير سيء. إنهم أولئك الذين لا يؤدون مهمات الحاضر. مع ذلك،

(1) هنا لعب لا يمكن ترجمته على الكلمتين Rat (نصيحة) و Verrat (خيانة). (هامش بانوش)

منْ يعلم بالضبط ما هي مهمته؟ لا أحد. لهذا فإنّ كل واحد منا لديه ضمير سيء، يحاول به أن يهرب ذاهباً للنوم بأسرع ما يمكن.

أشرتُ إلى أن يوهانس ر. بيشر في أحدى قصائده يصف النوم كونه زيارة ودية للموت.

هزّ كافكا رأسه.

ـ ذلك صحيح. ربما أرَقي مجرد نوعٍ من الخوف من الزائر الذي لأجله أدفع ثمن حياتي.

***

أعطاني الشاعر هانز كلاوس كتاباً صغيراً عنوانه «توبوش» لألبرت أهرنشتين مزيّناً باثنتي عشرة لوحة لأوسكار كوكوشكا. رأى كافكا الكتاب، أعرته له، وأرجعهُ لي في زيارته التالية إلى المكتب.

علّق قائلاً:

ـ يا له من كتاب صغير وفيه الكثير من الضجة. هل تعرف كتاب «صرخات البشرية»؟

ـ كلا.

ـ اعتقد أنه عنوان لكتاب قصائد لألبرت أهرنشتين.

ـ إذن أنتَ تعرفهُ جيداً؟

قال كافكا:

ـ جيداً؟

وهزّ كتفيه رفضاً.

ـ المرء لا يعرف العيش. الحاضر تغيّر وتحوّل. ألبرت أهرنشتين من جيلنا اليوم. إنه طفل مفقود ويبكي في الليل.

ـ وما رأيك بلوحات كوكوشكا؟

ـ لا أفهمها. اللوحة تُستوحى لكي تُرسم وتوصف وتُعرض. كل ما يعرضونه لي هو تشوّش الرسّام الداخلي واضطرابه.

ـ رأيتُ لوحته الكبيرة عن براغ أثناء المعرض التعبيري في رودولفينم.

أدار كافكا يده اليسرى، التي كانت تتكئ على المنضدة وراحتها للأعلى.

ـ لوحته الكبيرة التي تحتوي على قبة خضراء لكنيسة سانت نيكولاس في المركز.

ـ نعم هي تلك.

وأحنى رأسه.

ـ في تلك اللوحة السقوف تطير بعيداً. القبب مظلات في الريح. المدينة بأكملها تطير بكل الاتجاهات. مع ذلك تظل براغ منتصبة ـ على الرغم من كل النزاعات الداخلية. تلك هي المعجزة.

***

أعددتُ إعداداً موسيقياً قصيدتين من مجموعة «الربيع» ليوهانس شلاف. أرسلتُ نسخة إلى مؤلف الكلمات. شكرني يوهانس شلاف في رسالة طويلة مكتوبة باليد أريتها لفرانتس كافكا.

ضحك بينما أعاد لي الرسالة عبر منضدة الكتابة قائلاً:

ـ شلاف مؤثر جداً. زرناه حين كان في «فريمار» مع ماكس برود. لم يذكر الأدب أو الفن. كل انتباهه كان مركزاً على هدم النظام الشمسي الموجود.

ـ رأيت منذ مدة غير طويلة كتاباً واسعاً لشلاف زعم فيه بأنّ مركز الأرض هو مركز الكون.

ـ نعم، كانت تلك فكرته حينئذ، وحاول أن يقنعنا بحقيقته عن طريق نظريته الخاصة عن البقع الشمسية. أخذنا إلى النافذة في سكنه المتواضع وأرانا الشمس بمساعدة تلسكوب قديم يملكهُ طالب مدرسة.

ـ لا بدّ أنك ضحكت.

ـ لماذا؟ حقيقة أنه تجرّأ على خوض معركة مع العلم والكون المسلح بهذا الشيء السخيف الموروث من الأزمنة القديمة. كان أمراً تافهاً جداً ومؤثراً بشدة في الوقت نفسه إذ إننا كلنا تقريباً صدقناه.

ـ ما الذي منعكَ؟

ـ في الواقع، القهوة. كانت رديئة جداً. كان علينا أن نغادر.

***

كررتُ قصة رايمان الظريفة حول كيرت فولف، مدير مؤسسة نشر من لايبتسغ، الذي رفض في الساعة الثامنة صباحاً ترجمة رابندرانات طاغور، وأرسلَ بعد ساعتين قارئ المؤسسة إلى دائرة البريد المركزي ليسترد المخطوطة المرفوضة، لأنه في الوقت نفسه قرأ في الجريدة بأن طاغور قد فاز بجائزة نوبل.

قال فرانتس كافكا ببطء:

ـ غريب أنه قد رفض طاغور. طاغور في المطاف الأخير لا يختلف عن كيرت فولف. الهند ولايبتسغ، المسافة بينهما واضحة. في الواقع أنّ طاغور هو مجرد ألماني مقنّع.

ـ مدير مدرسة ربما؟

كرّر كافكا بجفاف:

ـ مدير مدرسة؟

وسحب للأسفل زوايا شفتيه المضغوطين بإحكام، ثم هزّ رأسه.

ـ كلا، لكن ربما يكون ساكسونياً ـ مثل ريتشارد فاغنر.

ـ مذهب صوفي بزي التيرول[1].

ـ شيء من ذلك.

ضحكنا.

***

أعرتُ كافكا ترجمة ألمانية لنصّ ديني هندي هو «البهاغافاد غيتا».

قال كافكا:

ـ الكتابات الهندية الدينية تجذبني وتبعدني في الوقت نفسه. وهي مثل السم وثمة شيء مغرٍ ومريع فيها. كل ممارسي اليوغا والسحرة يحكمون حياة الطبيعة لا بسبب حبهم المتوهج لها بل بسبب الكره الخفي والجامد للحياة. أصل العبادات الدينية الهندية هو التشاؤم العميق.

---

(1) نسبة إلى أقليم التيرول في النمسا.

تذكرتُ اهتمام شوبنهاور في الفلسفة الدينية الهندية.

قال كافكا:

ـ شوبنهاور فنان اللغة. ذلك أصل تفكيره. من أجل اللغة وحدها، يجب على المرء أن لا يخفق في قراءته.

* * *

ضحك فرانتس كافكا حين رآني أقرأ كتاب قصائد لمايكل مارس.

قال:

ـ أعرفهُ. إنه فوضوي قاسٍ تحمّلوه كشخص غريب الأطوار في صحيفة «البراغر تاغبلات»[1].

ـ ألا تأخذ الفوضويين التشيك على محمل الجد؟

ابتسم كافكا معتذراً.

ـ ذلك صعب جداً. هؤلاء الناس الذين يدعون أنفسهم فوضويين، هم في غاية اللطف والود، بحيث أن المرء عليه أن يصدّق كل كلمة يقولونها. في الوقت نفسه ـ وبسبب الميزات نفسها ـ لا يستطيع المرء أن يصدّق بأنهم في الواقع مخربو العالم كما يزعمون.

ـ إذن أنت تعرفهم شخصياً؟

ـ قليلاً. إنهم ناس لطفاء وظرفاء جداً.

* * *

(1) اسم صحيفة ليبرالية كانت تصدر بالألمانية آنذاك في براغ (1876 ـ 1939) توقفت عند الغزو النازي لتشيكوسلوفاكيا.

جلبتُ لكافكا عدداً جديداً من صحيفة «دي فاكل» التي كان ينشرها كارل كراوس في فيينا.

قال بينما كان يقلّب الصفحات:

ـ إنه عجيب في تمزيق الصحفيين. يمكن للسارق التائب فقط أن يكون حارساً صارماً.

ـ كارل كراوس يفضح غيورغ كولكا، الذي أعدّ مسرحيات لمسرح «بيرغ فيينا»، كونه مُنتحلاً. ما رأيك بذلك؟

ـ ذلك لا شيء. مجرد فشل قليل لمناطق في الدماغ. هذا كل ما في الأمر.

***

ناقشنا المقالات القصيرة اللامعة المكتوبة بقلم ألفرد بولغار الذي غالباً ما ظهرت في صحيفة «براغر تاغبلات».

قال كافكا:

ـ جُملهُ مصقولة وسارّة بحيث أن المرء ينظر إلى قراءة بولغار كونها تسلية اجتماعية محبّذة، ومن الصعب أن يلاحظ بأنهُ قد أصبح متأثراً ومتعلماً. إنّ قفّاز الشكل المخملي يخفي رغبة المحتوى القوية الجريئة. بولغار مكابي[1] مؤثر في أرض الفلسطينيين.

***

(1) مجموعة عسكرية يهودية قامت بثورة على حكام سوريا السلوقيين. تمكن المكابيون من تكوين السلالة الحشمونية التي حكمت فلسطين من 164 ق.م. وحتى 63 ق.م. قبل وقوعها بيد بومبى الروماني. اشتهر المكابيون بعصبيتهم الدينية حيث ركزوا على دور الديانة اليهودية في الحياة اليومية وحدوا من انتشار اللغة والثقافة اليونانية في المنطقة ـ م.

قال فرانتس كافكا بينما أرجع كتاباً من القصائد لفرانسس جاميس:

ـ إنه بسيط على نحو مدهش وقوي يبعث على السرور. إنّ حياته بالنسبة له ليست حدثاً بين ليلتين. إنهُ لا يعرف شيئاً عن الظلام. فهو وعالمه يستريحان بأمان في يد اللّه الجبارة. ويتكلم إلى اللّه مثل طفل يلثغ كأنهُ يتكلم لأي فرد من العائلة. لهذا فهو لا يشيخ.

***

أعطتني ليديا هولتسنر رواية عن الصين بعنوان «قفزات وانغ لن الثلاث» لألفريد دوبلن. أريتها لفرانتس كافكا الذي قال:

ـ إنه اسمٌ كبير بين الروائيين الألمان المعاصرين. عدا هذا الكتاب الأول لهُ، فإني أعرف فقط بعض القصص القصيرة ورواية غريبة له عن الحب بعنوان «الستارة السوداء». منحني دوبلن الانطباع بأنه ينظر إلى العالم الخارجي كشيء ناقص تماماً، ويجب أن يعطيه اللمسات الإبداعية الأخيرة عن طريق كتابته. ذلك هو انطباعي فقط. لكن لو تقرأه بانتباه فسرعان ما تلاحظ الشيء نفسه.

***

بسبب تعليقات كافكا قرأتُ رواية ألفريد دوبلن الأولى «الستارة السوداء ـ رواية كلمات وحوادث».

حين تكلمتُ معه حولها قال:

ـ لم أفهم الكتاب. المصادفة اسم يُطلق على حوادث متزامنة، لا يُعرف لها سبب. لكن لا عالم بلا سبب. لهذا لا توجد مصادفات في العالم، لكن عدا هنا..

مسّ كافكا جبينه بيده اليسرى وأضاف:

ـ المصادفات موجودة في رؤوسنا فحسب، وفي ادراكاتنا المحدودة. إنها انعكاس لمحدودية معرفتنا. الصراع ضد المصادفة هو صراع ضد أنفسنا، لا نستطيع تماماً أن نفوز به. لكن الكتاب لا يصرّح بأي شيء عن كل ذلك.

ـ إذن دوبلن خيّب أمَلَك؟

ـ في واقع الأمر، إني خائب الأمل في نفسي فقط. توقعتُ منه شيئاً مختلفاً مما هو راغب دائماً في طرحه. لكن توقعي العنيد أعماني، لذا تجاهلتُ صفحات وجملاً، وأخيراً أهملتُ الكتاب برمّته. لذا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن الكتاب. فأنا قارئ سيّء.

***

رآني فرانتس كافكا أحمل كتاباً لألفريد دوبلن بعنوان «جريمة في عشب الحوذان» فقال:

ـ كم يبدو غريباً حين تأخذ فكرة عادية تماماً من عالم ثقافة أكل اللحم وتربطها مع اسم نباتي هشّ.

***

في ثلاث حلقات متتالية نشرت صحيفة «براغر برس» يوم الأحد مقالة بعنوان «أدباء الحيوانات الكبار» لفرانتس بلاي. كان المؤلف يصف عدداً مصنفاً بصورة واسعة لكتّاب وشعراء على شكل سمكة أو طيور أو حيوانات خُلد أو أرانب برية.. إلخ. قال عن كافكا بأنه كان طيراً فريداً يتغذى على الجذور.

سألتُ كافكا عن فرانتس بلاي. فقال مبتسماً:

ـ كان صديقاً قديماً وحميماً لماكس برود لعدة سنين. بلاي ذكي وظريف جداً. كان دائماً مسلّياً حين نلتقي. الأدب العالمي استعرض متباهياً في سراويله ماراً بمنضدتنا. فرانتس بلاي أكثر ذكاءً وعظمة مما يكتبه. ذلك أمر طبيعي، لأن كتابته سجلت الحديث فقط. المسار من الرأس إلى القلم أطول بكثير وأصلب من المسار من الرأس إلى اللسان. الكثير يُفقد أثناء الطريق. فرانتس بلاي راوي قصة شرقي فقد طريقه إلى ألمانيا.

***

حين رآني أحمل كتاباً ليوليانز ر. بيشر علّق قائلاً:

ـ لا أفهم هذه القصائد فهي مليئة بالضجيج والصخب اللفظي، بحيث لا يمكن للمرء أن يبتعد عن نفسه. وبدلاً من الجسور، فإن الكلمات تشكل جدران عالية لا يمكن تسلقها. والشكل يزعج القارئ باستمرار، بحيث أنّه لا يمكنه أبداً أن يخترق المعنى. الكلمات لا يمكن تكثيفها أبداً داخل اللغة. إنها صراخ ولا شيء آخر.

***

استعرتُ كتابين لـ (ج.ك. تشيسترتون) هما «الأرثودوكسي» و«الرجل الذي كان خميساً».

قال كافكا:

ـ إنه في غاية المرح بحيث أنّ المرء يعتقد تقريباً بأنه أوجد الربّ.

ـ لذا فإنّ الضحكة بالنسبة إليك هي إشارة إلى شعور ديني.

ـ ليس دائماً. لكن في عصر ملحد مثل هذا فإنّ المرء يجب أن يكون مرحاً. إنه واجب. فأوركسترا سفينة التيتانك ظلت تعزف حتى نهاية غرقها. بهذه الطريقة يضعف المرء أسس اليأس.

ـ مع ذلك فإنّ المرح القسري أكثر حزناً من الأسى الصريح المُعلن.

ـ صحيح تماماً. مع ذلك فالحزن لا يمتلك تطلعات. وكل ما يهم هو التطلعات والأمل والتقدم. هناك خطر فقط في اللحظة الضيقة المحصورة. تكمن الهوّة خلفها.إذا ما تغلب عليها المرء فكل شيء يصبح مختلفاً. اللحظة فقط هي التي تهم وتقرّر الحياة.

***

تكلمنا عن بودلير.

قال كافكا:

ـ الشعر مرض. مع أنّ المرء لا يتعافى بالقضاء على الحمى. على العكس! فحرارته تطهّر وتُنير.

***

أعطيتُ للدكتور كافكا الترجمة التشيكية لكتاب «ذكريات مع ليو نيكولافيتش تولستوي» لمكسيم غوركي.

قال كافكا:

ـ إن الكيفية التي يصف بها غوركي شخصية الإنسان رائعة، دون أن ينطق بأي حكم. أتلهّف أن أقرأ في يوم من الأيام ملاحظاته عن لينين.

ـ هل نشر غوركي ذكرياته مع لينين؟

ـ كلا، حتى الآن. لكني أفترض بأنه في يوم ما سوف ينشرها. لينين صديق غوركي. لكن مكسيم غوركي يرى ويختبر كل شيء فقط من خلال قلمه. ندرك ذلك من خلال ملاحظاته عن تولستوي. القلم ليس أداة بل عضواً من أعضاء الكاتب.

***

اقتبستُ من كتاب غروسمان عن مؤلف كتاب «الشياطين» الجملة التالية: دوستويفسكي قصة خرافية مبللة بالدم.

قال فرانتس كافكا رداً عليها:

ـ لا توجد قصص خرافية بلا دم. كل قصة خرافية تأتي من أعماق الدم والخوف. كل القصص الخرافية متشابهة في هذا. يختلف السطح فقط. القصص الخرافية الشمالية تفتقد حيوانات الخيال الوافرة في القصص الخرافية لزنوج إفريقيا، لكن لبّ الشوق وعمقه هو نفسه.

... في وقت لاحق كان ينصحني أن أقرأ مجموعة بروبنيوس عن الحكايات الفولكلورية والقصص الخرافية.

***

هاينريخ هاينه:

كافكا: رجل تعيس. الألمان وجهوا وما زالوا يوجهون إليه اللوم لأنه يهودي، ومع ذلك فهو ألماني، يا له من ألماني صغير في نزاع مع اليهود. ذلك ما هو نموذجي جداً في يهوديته.

***

قال كافكا وهو يتحدث عن كتاب «الإنسان طيب» لليونهارد فرانك:

ـ أغلب الناس غير شريرين. يصبح الناس سيئين ومذنبين لأنهم يتكلمون ويتصرفون دون أن يتكهنوا بنتائج كلماتهم وأفعالهم. إنهم سائرون في النوم وليس مرتكبي أفعال شريرة.

***

كان كافكا بمزاجٍ راقٍ جداً.

قلتُ:

ـ أنت متألق اليوم.

ابتسم كافكا.

ـ إنه مجرّد ألق مُعار. انعكاس لكلمة حميمة. من صديق طيب جداً جاء إلى براغ، هو لودفيغ هاردت.

ـ هل هو ذلك السارد الذي سيظهر في مسرح «الكورن أكستشنج»[1]؟

ـ نعم، ذلك هو لودفيغ هاردت. هل تعرفه؟

ـ كلا لا أعرفه. رأيتُ فقط الإعلان في الصحيفة. إضافة إلى أن الإلقاء لا يثير اهتمامي.

ـ لودفيغ هاردت لا بدّ أن يثير اهتمامك. إنه ليس فناناً مغروراً. لودفيغ هاردت خادم الكلمة. فهو يحيي ويبعث الحياة في القصائد التي دفنت تحت غبار التقليد. إنه إنسان عظيم.

---

(1) بناية قديمة كانت تستعمل في القرن التاسع عشر لمقايضة وتبادل الحبوب بين التجار. وقد تحولت في القرن العشرين إلى مسارح أو قاعات سينما.

ـ كيف عرفته؟

ـ التقيت به من خلال ماكس (برود) قبل عشر سنوات. وفي أول لقاء أصغيتُ له المساء كله. إنه إنسان ساحر. حرّ جداً ومطمئن ونشط. أصله من مكان في الشمال، يهودي نموذجي، مع ذلك فهو غريب من مكان بعيد. في اللحظة الأولى التي رأيتهُ فيها شعرتُ بأني يجب أن أستمرّ على معرفته لمدة طويلة من الزمن. إنه ساحر.

ـ ما معنى أن يكون ساحراً؟

ـ لا أدري. لكنه يستطيع أن يحّفز شعوراً قوياً من الحرية. ذلك هو السبب في كونه ساحراً. على أي حال سوف نحضر أداءه معاً. سوف أحصل على بطاقات الدخول.

قبل إلقاء هاردت التقينا بالشاعر رودولف فوخس على عتبات بناية «الكورن أكستشنج». وقفنا معهُ في الواجهة بالقرب من المدخل. قصد كافكا الفنان بحذر، لكن نظرته تدل على إرهاق داخلي. رأيتُ أنه كان يواجه صعوبة كبيرة في الاحتفاظ بانتباهه للبرنامج.

سألتهُ في الفترة التي غادرنا فيها فوخس للحظة:

ـ هل تشعر بأنك على غير ما يرام سيدي الدكتور؟

رفع كافكا حاجبيه قائلاً:

ـ هل أبدو غريباً؟ هل ثمة شيء يُذكر؟

ـ كلا. تبدو فقط غريباً.

ابتسم كافكا وضيّق شفتيه وزمّهما.

ـ سيكون من السهل جداً أن أعبّر عن نفسي حين أكون متوعكاً جسدياً. من سوء الحظ أنّ لا شيء من هذا النوع. أشعر فقط بإرهاق وفراغ مميتين، يظهران دائماً متى ما أحسستُ بشيء من الفرح. من المحتمل أنّ لا خيال لي. لقد ذابت الأشياء، وبقيت فقط زنزانتي الرمادية التي تبعث على اليأس.

لم أفهم كلماته تماماً، لكن عودة رودولف فوخس أعاقت طرح أسئلة أخرى. وبعد أن انتهى عرض الإلقاء قلتُ لكافكا: ليلة طيبة، وكان ينتظر هاردت بصحبة فوخس وفلتش وفراو برود وآخرين.

زرتُ في اليوم التالي كافكا في مكتبه. كان إلى حدٍّ ما قليل الكلام ولم تجرِ أي مناقشة حول أمسيتنا في «الكورن أكستشنج». لكن حين علّقتُ بأني كنتُ أعرفُ كتاب رودولف فوخس الشعري «القافلة» وترجمته لترنيمات أوتوكار بريزينا، دبّ فيه النشاط وقال:

ـ يقرأ رودولف فوخس بإخلاص عميق، إذ إنه لا يعطي كل كتاب جيّد فحسب، بل أيضاً كل كلمة مخلصة من شاعر، قيمة تتجاوز روحه المتواضعة. لهذا السبب فهو مترجم جيّد ويكتب القليل بنفسه. مجموعته «القافلة» جرى توزيعها في الأسواق الأجنبية. إنه خادم الكلمة.

ولم نتكلم أبداً حول لودفيغ هاردت مرة أخرى.

***

أهداني أبي مجموعة قصائد لغيورغ تراكل بمناسبة عيد ميلادي.

أخبرني فرانتس كافكا بأن تراكل انتحر بتناول السم، لكي يهرب من فظائع الحرب.

قلتُ:

ـ إنه هارب إلى الموت.

قال كافكا:

ـ لديه خيال خصب. لذا لم يستطع أن يتحمل الحرب، التي نشبت، قبل كل شيء، نتيجة نقص حاد في الخيال.

***

أصبت بالمرض لمدة عشرة أيام، وبقيت في الفراش، ولم أذهب إلى المدرسة. أرسل الدكتور كافكا تحياته الحارة لي عن طريق أبي مع مجلد لونه فاتح من كتاب «عن الكتابة والأسلوب» لآرثر شوبنهاور.

وبعد بضعة أيام من شفائي زرتُ مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال. كان دكتور كافكا بمزاج رائق جداً. حين أخبرته بأني أصبحتُ أفضل حالاً بعد مرضي، ظهرت ابتسامة سحرية على شفتيه.

ـ ذلك شيء طبيعي تماماً. لقد تغلبتَ على لقاء مع الموت. ذلك يمنحك قوة.

قلتُ:

ـ إن حياة الإنسان هي مجرد رحلة نحو الموت.

نظر كافكا نحوي بوقار للحظة ثم خفضَ نظرته نحو طاولته.

ـ بالنسبة للناس الأصحاء، الحياة هي مجرد رحلة لاواعية وغير معلنة من الإدراك بأن الإنسان لا بدّ أن يموت يوماً ما. المرض هو تحذير دائماً واختبار للقوة. كذلك المرض والألم والمعاناة هي مصادر مهمة للشعور الديني.

سألتُ:

ـ بأي معنى؟

ابتسم كافكا وقال:

ـ بالمعنى اليهودي. أنا ملتزم نحو عائلتي وعِرقي. لقد تجاوزا عمر الفرد. لكن ذلك مجرد محاولة للهروب من إدراك الموت. إنها مجرد رغبة. وبتلك الوسائل لا يكتسب الإنسان أي معرفة. على العكس ـ وبتلك الرغبة فإنّ «الأنا» الصغيرة الأنوية جداً تفضّل نفسها على الروح الباحثة عن الحقيقة.

***

سأل كافكا:

ـ ماذا تقرأ؟

ـ «طشقند، المدينة الجميلة» لـ.....

ولم يسمح لي بإنهاء الجملة.

ـ إنه كتاب مدهش. لقد قرأته لفترة قصيرة في إحدى الأمسيات.

قلت:

ـ يبدو أن الكتاب هو وثيقة أكثر من كونه عملاً فنياً.

قال كافكا بوقار:

ـ الفن الصادق بأكمله هو وثيقة، وإشهار للبرهان.مثل هؤلاء الناس وأطفالهم في الكتاب، ناس مثل أولئك لا يمكن أبداً أن يخفقوا.

ـ ربما لا يعتمد على الأفراد.

ـ على العكس! أصناف المادة تقاس بعدد الالكترونات في الذرة. ومستوى الجماهير يعتمد على وعي الأفراد.

***

رافقتُ كافكا من المكتب إلى بيته.كان يوماً خريفياً بارداً، اكتسحه المطر والريح.

قال كافكا لي على العتبات بأنه لا يمكنه التحدّث في الهواء الطلق بمثل هذا الجو.

قلتُ:

ـ ذلك لا يهمّ. سوف يفهم أحدنا الآخر على حدٍّ سواء.

مع ذلك حين خرجنا من مدخل «مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال» انحنى كافكا وارتجف بقوة، ورسم بيده صليباً رومانيا كبيراً، فتوقف الفهم كله بالنسبة لي.

ابتسم كافكا بوجهي المندهش، ورجع إلى البناية وقال:

ـ أنا أتكلم التشيكية» sakramentskd velkd zima!»[1] انحنائي يشير إلى القوة التي غلبتني، والارتجاف الطريقة التقليدية في التعبير عن البرد، والصليب هو بالضبط القربان المقدس.

---

(1) الكلمة التشيكية sakramentskd تعني حرفياً «بشكل طقوسي»، لكنها أيضاً تستعمل في القَسَم الشعبي المعادل بالضبط للكلمة الإنكليزية «دموي». فتعني العبارة «برد دموي كبير».

لسببٍ غير معروف ضايقني مرحهُ، لذا قلتُ:

ـ علامة الصليب ليست قرباناً.

وضع يده على كتفي:

ـ ليس كل علامة فحسب بل أيضاً الإيماءة الأكثر تجريداً مقدسة أيضاً لو أنها كانت مليئة بالإيمان.

* * *

كان كافكا مناصراً للصهيونية ومتيقناً بها. في البداية ناقشنا هذه المسألة في ربيع عام 1920، حين رجعتُ إلى براغ بعد إقامة قصيرة في الريف.

زرتُ في ذلك الوقت فرانتس كافكا في المكتب. كان في مزاج رائق وثرثاراً وبدا لي مسروراً حقاً بزيارة غير متوقعة.

ـ ظننتُ أنك كنتَ بعيداً، وها أنت على عتبة بابي. هل كنت سعيداً في «شلومتس»؟

ـ نعم، لكن....

ختم كافكا مبتسماً:

ـ لكن هنا أفضل.

ـ أنت تعرف ـ الوطن هو الوطن. الأشياء في مكان آخر مختلفة تماماً.

قال فرانتس كافكا بعينين يغشيهما الحلم:

ـ الوطن مختلف دائماً. الوطن القديم جديد دائماً، إذا ما عاش الفرد بوعي، مع إدراك حاد لعلاقاته وواجباته تجاه الآخرين. الناس أحرار بهذه الطريقة، من خلال علاقاتهم مع الآخرين. وذلك هو الأمر العظيم في الحياة.

قلتُ:

ـ الحياة مستحيلة من دون حرية.

نظر فرانتس كافكا نحوي كأنه يقول:

ـ مهلاً، مهلاً.

ـ يبدو ذلك مقنعاً بحيث أننا نؤمن به تقريباً.في الواقع الأشياء أكثر صعوبة. الحرية هي الحياة. افتقاد الحرية هو الموت. لكن الموت هو مجرد حقيقة مثل الحياة. وهنا تكمن الصعوبة بالضبط: إذ إننا معرّضين لكليهما: الحياة إضافة إلى الموت. التشيك في عام 1913 أقل إدراكاً لذا هم أسوأ من التشيك عام 1920.

احتجّ كافكا قائلاً:

ـ لم أقصد بأن الفرد لا يستطيع أن يرسم مثل هذا الفرق الحاد بين التشيك عام 1913 والتشيك عام 1920. التشيك اليوم أكثر حيوية يمتلكون إمكانيات أكبر، لذا هم أفضل ـ إذا بإمكاننا التحدث بمثل هذه المصطلحات.

ـ لم أفهم تماماً.

ـ لا أستطيع أن أجعلها أكثر وضوحاً، وعلى أي حال لا أتمكن ربما من الضغط على نفسي نحو الأفضل في مثل هذا الموضوع لأني يهودي.

ـ ولِمَ؟ وما علاقة ذلك بالأمر؟

ـ كنا نتكلم عن التشيك في عامي 1913 و1920. تلك مشكلة تاريخية إلى حدٍّ ما لذا فإنها تتحول حالاً إلى المشكلة رقم 1 لعاهات اليهود.

لا بدّ من أنني قدمتُ استهلالاً أحمق ـ إذا ما حكمنا على صوته وموقفه ـ لأنهُ كان مهتماً لحظتها بفهمي أكثر من اهتمامه بالموضوع قيد المناقشة. وبعد أن انحنى للأمام تكلم برقة، لكن بوضوح وصراحة:

ـ لم يعد اليهود اليوم قانعين بالتاريخ، وبوطن بطولي في الوقت المحدد. إنهم يتوقون إلى وطن متواضع عادي في الخلاء. اليهود يعودون تدريجياً إلى فلسطين. إنها عودة إلى الذات والجذور والنمو.الوطن القومي لليهود في فلسطين هو هدف ضروري. من جهة أخرى، بالنسبة للتشيك فإنّ تشيكوسلوفاكيا هي نقطة الانطلاق.

ـ هل هو نوع من المطار؟

أمال فرانتس كافكا رأسه نحو كتفه الأيسر.

ـ هل تعتقد بأنهم سوف سينطلقون دائماً؟ يبدو لي كما لو أني رأيتُ فيهم افتراقاً عظيماً عن أسسهم ومصادر قوتهم. لم أسمع أبداً بصقر يافع يتعلم الطيران ليكون صقراً حقيقياً عن طريق الدراسة المتواصلة الثابتة لمناورات سمكة شبّوط مهيبة.

***

في بيت منزو كبير في «بيرغشتاين» كنت أبحث عن غرفة الاجتماعات لجمعية العمال اليهود «عمال صهيون». حين تكلمت مع مجموعة من الناس في الفناء المظلم، وبدلاً من المعلومات التي طلبتها تلقيت عدداً من الضربات على وجهي، فكان عليّ أن أهرب.

الناظر الذي جلبته بالطبع لم يجد أحداً بقي في الفناء. واستفهم بمزاج سيء:

ـ لكن ماذا تريد من هؤلاء اليهود؟ مع أنك غير يهودي.

هززتُ رأسي.

ـ كلا أنا لستُ يهودياً.

قال حارس القانون منتصراً:

ـ ها أنت ذا. ها أنت عرفت الأمر! ما علاقتك بهؤلاء الغوغاء؟ أشكر حظك أنك تلقيت ضربتين على الأنف ورجعتَ للبيت. الناس المحترمون لا يختلطون مع اليهود.

***

بعد بضعة أيام أخبرتُ كافكا عن حادثة ضربي المشؤومة.

قال:

ـ العداء للسامية ازداد مع الصهيونية. الإقرار الذاتي لليهود بدا رفضاً لمحيطهم. ونتيجة لذلك فإن عُقد الدونية خُلقت وبلغت المقدمة في فورة الكره. بطبيعة الحال، على المدى الطويل، لم يُكتسَب أي شيء. لكن ذلك هو أصل ذنب الناس، لأنهم يفضلون الشر، الذي يكمن قريباً بشكل مغرٍ وفي المتناول، على القيم الأخلاقية التي تبدو من الصعب الحصول عليها.

قلت:

ـ ربما لا يتمكن الناس من التصرف بطريقة أخرى.

هزّ كافكا رأسه بقوة.

ـ كلا، يستطيع الناس أن يتصرفوا بطريقة أخرى. فالسقوط برهان على حريتهم.

***

علّق فرانتس كافكا في سياق أحد الأحاديث عن انطولوجيا للقصة اليهودية من أوربا الشرقية فقال:

ـ إن بيريز وآش وكل الكتّاب اليهود من شرق أوربا يكتبون دائماً قصصاً هي في الحقيقة قصصٌ فولكلورية. وذلك صحيح تماماً. اليهودية ليست مسألة إيمان فحسب، إنها قبل كل شيء مسألة ممارسة طريقة حياة في مجتمع مشروط بالإيمان.

***

أعطاني صديقي ليو ليدرر كتاباً يحتوي على دراسة مصورة عن مايكل أنجلو.

أريتُ الكتاب إلى فرانتس كافكا، وظلّ لفترة طويلة يدرس صورة موسى الجالس. قال:

ـ ذلك ليس قائداً إنه قاضٍ ، قاض مُرسل. الناس يمكن أن ينقادوا بوسائل القضاء الحادة الصارمة.

***

بعد أن أخبرني عن رحلاته إلى ألمانيا وفرنسا قال عن ماكس برود:

ـ تلك الرحلات عززت صداقتنا. ذلك شيء طبيعي. في المحيط الأجنبي يصبح ابن البلد المألوف أوضح وأكثر تميزاً بالنسبة لنا. أظن أنّ ذلك هو مصدر النكت اليهودية عن اليهود. كان أحدنا يرى الآخر أفضل من الناس الآخرين، لأننا كنا سويةً في رحلة.

***

مشينا على رصيف الميناء.

سألتُ عن معنى كلمة «الشتات». قال كافكا إنه التعبير الإغريقي لتشتت الشعب اليهودي. الكلمة العبرية المقابلة «غالوت».

قال:

ـ الشعب اليهودي مشتت كما تتفرق الحبة. مثل البذرة التي تمتص المادة من المحيط وتخزنها ثم تحقق نمواً آخر، كذلك مصير اليهود هو أن يمتصوا القوى الكامنة للبشرية ويطهرونها ويمنحونها تطوراً أعلى. ما يزال موسى حقيقة. وكما عارض أبيرام وداثان النبي موسى بكلمات: «لن نصعد!»[1]، يعارضه العالم أيضاً بصيحة معاداة السامية. لكي لا يرتقوا إلى الحالة الإنسانية راح الناس يغرقون في الأعماق المظلمة للإيمان الحيواني بالعِرق. إنهم يضربون اليهود ويقتلون الإنسانية.

***

قال كافكا في حديثه عن الدكتور كارل كرامر:

ـ اليهود والألمان لديهم الكثير من المشتركات. إنهم نشطون، وبارعون، وكادحون، وممقوتون تماماً من قبل الآخرين. اليهود والألمان منبوذون.

قلتُ:

ـ ربما هم مكروهون بسبب المزايا ذاتها التي ذكرتها.

---

(1) في سفر العدد 16:12 من الكتاب المقدّس ( فَأَرْسَلَ مُوسَى لِيَدْعُوَ دَاثَانَ وَأَبِيرَامَ ابْنَيْ أَلِيآبَ. فَقَالاَ: «لاَ نَصْعَدُ! أَقَلِيلٌ أَنَّكَ أَصْعَدْتَنَا مِنْ أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً لِتُمِيتَنَا فِي الْبَرِّيَّةِ حَتَّى تَتَرَأَّسَ عَلَيْنَا تَرَؤُّسًا؟) ـ م

لكن كافكا هزّ رأسه.

ـ أوه، كلا! هناك سببٌ أكثر عمقاً. وفي المطاف الأخير أنه سبب ديني. هذا واضح في حالة اليهود. لكن غير ظاهر جداً في حالة الألمان، لأنّ معبدهم لم تُهدَم حتى الآن. لكن سيحدث ذلك.

قلتُ بذهول:

ـ ماذا تعني؟ رغم كل ذلك، الألمان غير ثيوقراطيين[1]. ليس لديهم ربٌّ قومي في معبد خاص به.

قال كافكا:

ـ أغلب الناس يظنون هكذا، لكن الأمر في الواقع غير ذلك. الألمان لديهم الربّ، الذي جعل الحديد يحكم. معبده في هيأة الأركان العامة لبروسيا.

ضحكنا. غير أنّ فرانتس كافكا أعلن أنه كان جادّاً تماماً، وقد ضحكَ لأنّي ضحكتُ. كانت ضحكته مجرّد عدوى.

***

أخبرني فرانتس كافكا بأنّ الشاعر اليهودي من براغ أوسكار بوم قد دخل المدرسة الابتدائية الألمانية حين كان صغيراً. وفي طريقه إلى البيت كانت تقع عادةً مشاحنات متكررة بين الطلاب الألمان والتشيك. وفي إحدى تلك المشاجرات، ضُربَ أوسكار بوم بقوة على عينيه بصندوق أقلام خشبي، بحيث أنّ شبكية العين انفصلت عن قاعدة مقلة العين، وفقد أوسكار بوم بصره.

---

(1) أي غير تابعين لرجال الدين ـ م

قال فرانتس كافكا:

ـ فقد اليهودي أوسكار بوم بصره كألماني. كشيء لم يكنه في الواقع، ولم يُقبَل ككائن بشري. ربما أوسكار بوم هو رمز كئيب فحسب لما يسمّى اليهود الألمان في براغ.

***

تكلمنا عن العلاقات بين الألمان والتشيك. قلتُ بأنّ نشر تاريخ التشيك بالألمانية سوف يخلق فهماً أفضل بين الأمتين.

غير أنّ كافكا رفض هذا بإشارة مُذعنة من يدهِ. قال:

ـ سيكون عبثاً. مَنْ سيقرأه؟ التشيك واليهود فقط. بالتأكيد ليس الألمان، لأنهم لا يرغبون في الفهم والإدراك والقراءة. يرغبون أن يملكوا ويحكموا فقط، ولأنّ ذلك الفهم هو عائق عادةً. إنّ اضطهاد الجيران يكون أفضل بكثير حين لا نعرفه. وخزات الضمير تختفي. لهذا السبب، لا أحد يعرف تاريخ اليهود.

قلتُ محتجّاً:

ـ ذلك غير صحيح. إنهم يعلّمون الكتاب المقدّس حتى في المرحلة الأولى للمدرسة الابتدائية، أي جزء من تاريخ الشعب اليهودي.

ضحك كافكا بمرارة وقال:

ـ هكذا تماماً! تاريخ اليهود اتخذ مظهر الحكاية الخُرافية، التي يمكن للناس من نبذها سويةً مع طفولتهم في حفرة النسيان.

***

ودّعتُ صديقي «ليو ليدرر» في ساحة الجمهوريين، حين اقترب مني فرانتس كافكا فجأةً. قال بعد كلمات الترحيب المألوفة:

ـ تبعتكَ طوال الطريق من «تشنوف». لقد كنتَ مستغرقاً تماماً في الحديث.

ـ كان ليو يوضّح لي مذهب التايلورية[1]، وتقسيم العمل في الصناعة.

ـ إنه موضوع مفزع.

ـ هل تفكّر بمسألة استعباد البشرية يا سيدي الدكتور؟

ـ إنه أمرٌ أسوأ من ذلك. مثل هذا الهياج العنيف يمكن أن ينتهي إلى الاستعباد من قبل الشر. إنه أمرٌ حتميّ. الزمن هو العنصر الأنبل والأشدّ جوهراً في العملية الإبداعية، وقد صُدِرَت داخل شبكة الشؤون التجارية الفاسدة. ليس العمل الإبداعي فحسب، بل الإنسان نفسه، الذي هو جزؤه الجوهري، يجري إفساده وإهانته. الحياة التي تتبنى مذهب تايلور هي لعنة مريعة سوف ترفع من مستوى الجوع والبؤس بدلاً من الثروة والربح المقصود. إنّها تسير قُدماً.....

أكملتُ جملته:

ـ نحو نهاية العالم.

هزّ فرانتس كافكا رأسه.

---

(1) نسبة إلى تايلور (1856 ـ 1915) يعتبر مؤسس الإدارة العلمية الحديثة. نشر دراسة عن الوسائل الكفيلة برفع الإنتاج عن طريق تجزئة العمليات الصناعية ويعد كتابه «مبادئ الإدارة العلمية الصادر في 1911 النواة الأولى للثورة الإدارية الحديثة، كما انه احتوى على نظريته التي سماها بنظرية الإدارة العلمية نسبة لتطبيقه المنهج العلمي.

ـ ليت ذلك يُقال بيقين. لكنه مع ذلك مؤكّد قطعاً. لذا لا يستطيع الإنسان أن يقول شيئاً. يستطيع أن يصرخ ويتلعثم ويختنق. حزام الحياة الناقل يحمل الإنسان إلى مكانٍ ما ـ لكنه لا يعرف إلى أين. الإنسان شيءٌ وغاية أكثر من كونه عضواً حيّاً.

نهض كافكا جامداً ومدّ يده:

ـ انظرْ! هناك، هناك! هل تستطيع أن تراه؟

خارج البيت في «ياكوبغاسه»، وفي أثناء مناقشتنا، ركض كلبٌ صغير يشبه كرة من الصوف، واجتاز ممرنا واختفى من الزاوية في «تبلغاسه». قلتُ:

ـ كلبٌ صغير جميل.

سأل كافكا متشككاً وبدأ يتحرك ببطء مرة أخرى:

ـ كلب؟

ـ كلب صغير. ألمْ تَرهُ؟

ـ رأيته. لكن هل كان كلباً؟

ـ إنه كلبٌ صغير من نوع «البودل».

ـ بودل؟ يمكن أن يكون كلباً، لكن يمكن أن يكون علامة أيضاً. نحن اليهود نرتكب أحياناً أخطاءً مأساوية.

قلتُ:

ـ إنه مجرد كلب.

تمايلَ كافكا وقال:

ـ سيكون شيئاً جديداً. لكن كلمة «مجرّد» صحيحة فقط لمن يستعملها. ما يعدّهُ أحد الأشخاص مجموعة من السجاجيد أو كلباً ما، هو علامة بالنسبة للشخص الآخر.

قلتُ:

ـ أودرادك[1] في قصتك «هموم الأب».

كانت لديّ مراجعة، نشرتها في صحيفة «تسلوزيان»، وتضمنت مقالة عن «بلدة الأولاد The Boys' Town» التي أسّسها بالقرب من مدينة أوماها بولاية نبراسكا عام 1917 كاهنٌ إيرلندي هو «الأب فلانجان». قرأ كافكا المقالة ثم قال:

ـ كل بلداتنا وآثارنا الباقية بناها أطفالٌ مجانين، وقد أسّسوا الحرية بالخضوع.

* * *

قلّب فرانتس كافكا صفحات كتاب «روح الثورة الروسية» لألفونس باكوت، وقد جلبتهُ معي إلى مكتبه:

ـ هل تودُّ أن تقرأهُ؟

قال كافكا:

ـ كلا، شكراً.

وسلمني الكتاب عبر طاولته، وأضاف:

---

(1) أورادك هو الشبح الذي يظهر في قصة «هموم الأب» لكافكا من مجموعة «طبيب الأرياف».

ـ لا وقت لديّ الآن. شيء مؤسف. في روسيا يحاول رجالها أن يؤسسوا عالماً عادلاً تماماً. إنه شأنٌ ديني.

ـ لكن المذهب البلشفي يعارض الدين.

ـ ذلك لأنه دينٌ بذاته.هذه التدخلات، والتمرد والحصار ـ ما هي؟ إنها تجارب صغيرة للحروب الدينية الكبيرة والقاسية التي سوف تكتسح العالم.

***

التقينا بمجموعة كبيرة من العمال الذين يسيرون إلى اجتماع حاملين لافتات ورايات.

قال كافكا:

ـ هؤلاء الناس يملكون الرزانة والثقة بالذات والدعابة. إنهم يحكمون الشارع، ويعتقدون لهذا السبب بأنهم يحكمون العالم. في الواقع، أنّهم مخطئون. وراؤهم هناك مسؤولو السكرتارية والموظفون والسياسيون المحنكون، وكلّ الحكام المستبدين[1] المعاصرين الذين يهيّئون لهم الطريق للسلطة.

ـ هل أنت غير مؤمن بسلطة الجماهير؟

ـ إنها أمام عينيّ، سلطة الجماهير هذه، بلا شكل، وفوضوية ظاهرة، تبحث فيما بعد عن شكلها وتصبح منضبطة. في نهاية كل تطور ثوري حقيقي يظهر نابليون بونابرت آخر.

ـ أنت لا تعتقد بالامتداد الواسع للثورة الروسية؟

---

(1) في الأصل مرزبان وهو حاكم ولاية فارسية قديمة ـ م

ظلّ كافكا صامتاً للحظة ثم قال:

ـ كما ينتشر الفيضان أوسع فأوسع، يصبح الماء ضحلاً ووسخاً. الثورة تتبخر، وتترك وراءها وَحَل بيروقراطية جديدة. قيود البشرية المعذّبة صُنِعت من شريطٍ أحمر.

***

أعطيتُ فرانتس كافكا وصفاً لمحاضرة عن الموقف في روسيا، نظمها اتحاد الطلبة الماركسيين في غرفة روزا التابعة لبيت الشعب الاشتراكي الاجتماعي في «هايبرنغاسه»، والتي حضرتها مع أبي. حين انتهيتُ قال فرانتس كافكا:

ـ لا أفهم شيئاً في السياسة. بطبيعة الحال ذلك خطأ يجب أن أسعد بتصحيحه. لكن كان لديّ العديد جداً من الأخطاء! حتى لو أنّ المواضيع الشائعة دائماً تفوتني. كم أعجب بماكس برود، الذي يعرف طريقه حتى عن عالم الرذيلة في السياسة. يتكلم معي في غالب الأحيان ولمدة طويلة جداً عن شؤون اليوم. أصغي له كما أستمع لك، مع ذلك لا أستطيع أبداً أن أبلغ لب الموضوع.

ـ ألم أستطع أن أعبّر عن نفسي بصورة واضحة؟

ـ إنك أسأت فهمي. عبرت عن نفسك بشكل أفضل. الأخطاء لي. الحرب والثورة في روسيا وبؤس العالم بأكمله تبدو لي مثل طوفان الشر. إنه اجتياح. الحرب فتحت بوابات طوفان الفوضى. دعامات الوجود البشري تنهار. التطور التاريخي لم يعد محدداً بالفرد بل بالجماهير. لقد تم دُفِعنا وأُقحِمنا وكُسِحنا. إننا ضحايا التاريخ.

ـ تقصد أنّ الإنسان لم يعد جزءاً من خلق العالم؟

قام كافكا بحركات متمايلة خفيفة من جسده.

ـ أنت تسيء فهمي مرة أخرى. على العكس، الإنسان يرفض شراكته ومسؤوليته العامة في العالم.

ـ لا يمكن ذلك. ألا ترى نمو حركة الطبقة العمالية؟ وقابلية تحرك الجماهير؟

كان لملاحظتي صدىً للمحاضرة عن الموقف في روسيا وتعليقات أبي عليها.

قال كافكا:

ـ تلك هي المسألة تماماً. حركتهم تحرمنا من إمكانية الرؤية. وعينا ينكمش. لا ندري بأننا نفقد إدراكنا، دون أن نفقد الحياة.

ـ تقصد أنّ الناس أصبحوا غير مسؤولين.

ابتسم كافكا بمرارة.

***

ربيع عام 1923 أريتُ هذا المجلد الكبير لفرانتس كافكا وتمعّن لمدة طويلة في لوحة «حرب» لآرنولد بوكلين[1] ولوحة «هرم الجماجم» لـ «ف.ف.فيريشاغن»[2].

قال كافكا:

---

(1) رسام تعبيري سويسري (18276 ـ 1901) ـ م

(2) رسام روسي وبالأخص للحرب (1842 ـ 1904) ـ م

ـ لا أحد أعطى صورة حقيقية للحرب. لقد أظهروا عادة جوانبها الإضافية أو أحداثها ـ مثل لوحة «هرم الجماجم». مع ذلك، فإنّ الأمر الفظيع حول الحرب هو ذوبان كل الحقائق والأعراف الموجودة. الحيواني والجسدي ينموان تماماً ويخنقان كل ما هو روحي مثل السرطان. لم يعد الإنسان يعيش لسنوات وأشهر وأيام وساعات بل للحظات فقط. حتى اللحظة لم تُعش حقاً. الإنسان واعٍ بها. إنه يوجد فحسب.

ـ ذلك لأنه قريب إلى الموت.

ـ بسبب معرفة الموت والخوف منه.

ـ أليس ذلك الشيء نفسه؟

ـ كلا، ليس الشيء نفسه. كل إنسان يمسك الحياة تماماً لن يخشى الموت. إن الخوف من الموت هو نتيجة لحياة غير متحققة. إنه أحد أعراض الخيانة.

***

ناقشنا أحد المؤتمرات العالمية الضخمة التي لحقت الحرب. قال فرانتس كافكا:

ـ إنّ المستوى الفكري لهذه الاجتماعات السياسية الكبرى هو بمستوى حديث المقهى العادي نفسه. الناس يتكلمون بصوتٍ عالٍ وعلى مدى طويل، لكي يقولوا القليل مما أمكن. الأمور الحقيقية فعلاً والمثيرة للاهتمام هي المؤامرات في الخلفية، التي لا تُذكر كلمة حولها.

ـ إذن برأيك أنّ الصحافة ليست خادمة للحقيقة.

قرصت ابتسامة مؤلمة زاويتي فم كافكا.

ـ إنّ الحقيقة، التي تعود إلى القلة من الأشياء الثمينة الكبرى في الحياة، لا يمكن أن تُشترى. فالإنسان يتسلّمها كهدية، مثل الحب أو الجمال. لكن الصحيفة هي سلعة تُباع وتُشترى.

تساءلتُ بقلق:

ـ إذن الصحافة سمسار الإنسان الأحمق.

ضحك فرانتس كافكا، ودفع حنكه للأمام إحساساً بالانتصار.

ـ كلا، كلا! كل شيء حتى الكذب يسبق الحقيقة. الظلال لا تلطّخ الشمس.

***

كان فرانتس كافكا متشائماً جداً من الصحافة. اعتاد أن يبتسم حين يرى معي حزمة من الصحف.

قال مرة:

ـ تعبير «مدفون في الصحف» يوجز القضية حقاً. تقدّم لنا الصحف أحداث العالم. حجراً فوق آخر، كتلة قذارة فوق أخرى؛ كومة تراب ورمل. لكن أين معناها؟ أن نرى التاريخ كتراكم للأحداث هو أمر لا معنى له. ما يهم هو مغزى الأحداث. لكننا لن نعثر على ذلك في الصحف. سنكتشفهُ في الإيمان فقط، في إضفاء الموضوعية على ما يبدو عرَضياً.

***

دخلتُ مكتب كافكا. لا يوجد أحد هناك. الأوراق تستلقي مفتوحة. إجاصتان على طبق، وبضع صحف تدل على أنه كان في البناية. لذا

جلستُ في كرسي الضيف بالقرب من منضدة كتابته. التقطتُ صحيفة «براغر تاغبلات» وبدأت بالقراءة.

دخل كافكا بعد هنيهة.

ـ هل كنتَ تنتظر منذ مدة طويلة؟

ـ كلا، لقد انهمكتُ في القراءة.

أريتهُ مقالة في الصحيفة عن «اجتماع عصبة الأمم». أبدى كافكا إيماءة يائسة:

ـ عصبة الأمم! هل هي عصبة حقيقية للأمم بمعنى من المعاني. يبدو لي أنّ اسم «عصبة الأمم» هو فقط قناع لمعركة جديدة.

ـ هل تعني بأنّ «العصبة» ليست منظمة للسلام؟

ـ العصبة آلية لإضفاء المحلية على المعركة. الحرب تستمر، حتى الآن بأسلحة أخرى. البنوك تحل محل الفرق العسكرية. السعة القتالية للمال تحل محل القوى الحربية الفعالة للصناعة. العُصبة ليست عصبة للأمم، إنها بورصة للتبادل بين مجموعات مختلفة من المصالح.

***

لفتُّ انتباه فرانتس كافكا إلى مقالة طويلة عن إصلاح المسألة. نظر بعيداً عن الصحيفة، ودفع شفته السفلى بخفّة للأمام، وقال:

ـ في النهاية، المشكلة بسيطة تماماً. إنّ المشاكل الصعبة التي لا تفسّر حقاً هي تلك التي لا نستطيع أن نصوغها، لأنها تمتلك صعوبات الحياة نفسها كمحتوى لها.

***

ناقشنا مقالة في صحيفة كانت تتحدث عن إمكانيات السلام الفقيرة في أوربا.

قلتُ:

ـ الآن معاهدة السلام نهائية.

قال كافكا:

ـ لا شيءَ نهائياً. منذ إبراهام لنكولن لا يُحسَم أي شيء بصورة نهائية إن لم يُحسَم بشكلٍ عادل.

سألتُ:

ـ متى سيكون ذلك؟

ـ مَنْ يدري؟ الناس ليسوا آلهة. التاريخ صُنِع من أخطاء وبطولات كل لحظة تافهة. إذا ما ألقيتَ حصاة في نهر سوف تنتج سلسلة من التموجات. لكن أغلب الناس يعيشون دون أن يدركوا مسؤولياتهم التي تمتد ما وراء ذواتهم. واعتقد أنّ ذلك هو أصل بؤسنا.

سألتُ:

ـ ما رأيك بقضية «ماكس هوليتس»[1]؟

ـ هل تستطيع أن تحقق الخير من خلال الشرّ؟ إنّ القوة التي تضع نفسها مقابل المصير هي في الحقيقة ضعف. الاستسلام والقبول أكثر قوة. لكن المركيز دو ساد لم يفهم ذلك.

---

(1) قائد انتفاضة سنة 1921 في وسط ألمانيا، وقد تمّ القبض عليه في الجانب التشيكي من الحدود الألمانية. رفضت الحكومة التشيكية تسليمه إلى ألمانيا.

هتفتُ:

ـ المركيز دو ساد؟

أومأ فرانتس كافكا برأسه وقال:

ـ نعم المركيز دو ساد، الذي أغرتني سيرته، هو الراعي الحقيقي لعصرنا.

ـ ذلك غير صحيح تماماً.

ـ نعم، يستطيع المركيز دو ساد أن يحصل على المتعة فقط من خلال معاناة الآخرين، تماماً مثل رفاهية الأغنياء التي يدفع ثمنها الفقراء البائسون.

لكي أغطّي على هزيمتي، فتشتُ حقيبتي، وأخرجتُ بعض الصور المستنسخة للوحات فنسنت فان كوخ لأريها له.

شعر كافكا بالسرور. قال:

ـ حديقة المطعم هذه، والليل العاصف في الخلفية جميلة جداً. الأخرى محبوبة أيضاً. لكن حديقة المطعم مدهشة. هل تعرف هذه الرسوم؟

ـ كلا لا أعرفها.

ـ يا للأسف! إنها موجودة في كتاب «رسائل من الملجأ». ربما ستجد الكتاب في مكان ما. أتوق جداً للتمكن من الرسم. في واقع الأمر أحاول دائماً. لكن لا نتيجة. رسوماتي هي كتابة صورية شخصية خالصة، لها معنى لا أستطيع أن أكتشفه بعد فترة من الوقت.

***

أريتهُ العدد السنوي من صحيفة أسبوعية تصدر في فيينا، وتحتوي على صورٍ لأهم الأحداث خلال السنوات الخمسين الأخيرة.

قلتُ:

ـ ذلك تاريخ.

زمّ كافكا فمهُ. قال:

ـ لماذا؟ التاريخ أشدُّ لا معقولية من تلك الصور القديمة، بما أنّ أغلبهُ يتكون من مفاوضات رسمية.

***

أخبرتُ كافكا بحلمي. كان الرئيس «ماساريك» يمشي على رصيف الميناء كأي مواطن عادي. رأيته بوضوح، لحيته، نظاراته، وذراعاه تتقاطعان خلف ظهره، ومعطفه المفتوح المرتخي. ابتسم فرانتس كافكا:

ـ حلمك يناسب شخصية «ماساريك». يمكن بسهولة أن تقابل رئيس الدولة بشكل غير رسمي. إنّ «ماساريك» ذو شخصية قوية بحيث يستطيع أن يستغني تماماً عن رموز السلطة الخارجية. إنه بلا «عقيدة» لهذا يبدو في منتهى الإنسانية.

***

وصفتُ ما حدث في اجتماع «الديمقراطيين الوطنيين» في «كارولاينتال» الذي كان فيه المتحدث الرئيسي هو وزير المالية «د.أ. راسين».

قال كافكا:

ـ إنه مقاتل بارع. صيحته في المعركة «يسقط الألمان» جعلت منه لسان حال الناس الذين لديهم مشتركات مع الألمان المكروهين في السلطة، أكثر مما لديهم مع الجماهير التشيكية الفقيرة.

ـ كيف يحصل ذلك؟

ـ ترى قمم الجبال أحداها الأخرى. أما التجاويف والوديان الصغيرة التي تستلقي في ظلها فتنسى أحدها الآخر، على الرغم من أنها عادة ما تمتد على المستوى نفسه.

***

عثرتُ فوق منضدة الكتابة لكافكا نشرة بعنوان «التطهير» موجهة ضد وزير الخارجية «بنيتس».

قال فرانتس كافكا:

ـ يلومون دكتور «بنيتس» كونه غنياً. ذلك نقدٌ تافه. فهو قادر بشكل استثنائي. سوف يكسب الثروة تحت أي ظروف بسبب قابلياته وعلاقاته. لن يهم إن كان يشتري الجوارب أم ورق النفايات. إنّ السلعة التي يتعامل بها غير موجودة هنا أو هناك. إنه رجل كبير في عالم التجارة. ذلك ما يهمّه ويهمّ الآخرين. لذا فإنّ هذا الانتهاك دقيق جداً شكلياً، لكنه لامعقول سياسياً. إنهم يستهدفون الرجل دون أن يهاجموا أفعاله.

***

تغيرات محدّدة في النظام كان يجب تنفيذها في «مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال». كان أبي يعمل على مذكرة تخص الموضوع. في الغداء أدرجَ ملاحظات عن الهامش الفارغ في صحيفته، وفي الليل أغلق على نفسه الباب في غرفة الطعام.

ابتسم كافكا حين أخبرتهُ.

قال:

ـ أبوك طفلٌ مُسنّ عزيز. لكن هكذا هو كل شخص يؤمن بالإصلاح. إنهم لا يعرفون بأنّ صورة العالم تتغير فقط من خلال الشيء الذي يموت والآخر الذي يولد. شيء يسقط وآخر ينشأ. وذلك يغيّر من ترتيب الشقوق في المشكال[1] لكن الأطفال الصغار جداً هم الذين يعتقدون بأنهم أعادوا إنشاء الدمية.

***

تكلّم أبي عن كافكا بتحفّظ شديد. ربما يفهم المرء من تعليقاته بأنّ أبي كان مهتماً بالدكتور كافكا، لكنّ هناك دائماً شعوراً بأنهُ لم يفهمه تماماً. من جهة أخرى، كان كافكا يحترم أبي، ويفهمه بشكل عميق.

قال:

ـ يدهشني أبوك بتفنّنه. الأشياء حقيقية بالنسبة له. كل شيء قريب وحميم. لا بدّ من أنّه إنسانٌ ذو إيمانٍ عميق، وإلا فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الأشياء الأبسط في العالم ويقترب منها.

أخبرته بأنّ أبي كرّس وقت فراغه للنجارة وصناعة الأقفال. وصفتُ حماسته وطموحه بمبالغة مازحة. لكن سلوكي لم يعجب كافكا، فسحب حاجبيه معاً، ودفع شفته السفلى للأمام، ثم تمعّن بي بشكل جدّي قائلاً:

ـ لا تضحك! لا تتصرّف كأنك تغلق عينيك عمّا هو جميل. إنك تبدي

---

(1) المشكال: أداة عندما تتغير أوضاعها تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية مختلفة الألوان.

غرورك بلا قناع. لأنك فخور بوالدك. وبشكل صحيح. إنه جذّاب ومبدع لأنّ لا غرور لديه. لكن هذه الحقيقة تحرجك. أنت تضحك، لأنك تتألم بسبب عدم قدرتك على الانضمام إلى والدك في أعمال النجارة والأشغال المعدنية. ابتساماتك؟ إنها لا تريق الدموع.

***

ـ كنتُ أقرأ دراما شعرية لفرفل بعنوان «رجل المرآة».

قال كافكا:

ـ أنا أعرف المسرحية منذ مدة طويلة. قرأ فرفل مرتين بصوت عالٍ عدة أجزاء منها لنا. تبدو الكلمات جيدة لكن ـ لنكن صريحين ـ أنا لم أفهم المسرحية. فرفل مركَبٌ بجدران سميكة. فهو يصدر صوتاً بسرعة كبيرة كنتيجة لأشكال مختلفة من النقر الآلي من الخارج لا بسبب الاهتياج داخله.

سألت:

ـ هل صحيح أنه كتب رواية طويلة عن الموسيقى؟

هزّ كافكا رأسه.

ـ نعم. لقد اشتغل عليها لمدة طويلة. كان من المؤمل أن تكون عن فيردي وفاغنر. سوف يقرأ أجزاء منها بالتأكيد حالما يعود من براغ.

قلتُ:

ـ أنت تقول ذلك بتعبير كئيب للغاية. هل تحب فرفل؟

قال فرانتس كافكا مؤكداً:

ـ أوه، نعم، إني أحبه كثيراً. عرفته كطالب مدرسة. ماكس برود، فلكس

ولتش، فرفل، وأنا غالباً ما خرجنا في نزهات سويةً. كان أصغرنا، لذا كان ربما الأكثر جدية. شبابه كان يغلي داخله. يقرأ لنا قصائده. كنا نستلقي على العشب وننظر للشمس خلسة. يا له من وقت رائع بحيث أن ذكراه ذاتها تجعلني أحب فرفل، مثل بقية أصحابي في تلك الأيام.

قلتُ:

ـ تبدو حزيناً.

ابتسم كافكا كأنه رغب في الاعتذار:

ـ الذكريات السعيدة يبدو طعمها أفضل حين تكون ممزوجة مع الأسى. لذا فإنني في الحقيقة لستُ حزيناً، بل مجرد نهم إلى المتعة.

ـ تلك هي الجذور القاسية التي تحدث عنها فرانتس بلاي.

ضحكنا معاً هنيهة.

وسرعان ما أصبح فرانتس كافكا جدياً.

قال:

ـ في الحقيقة ليس الأمر كذلك مطلقاً. حين أظن بأني لا أفهم شيئاً عن الشغف الأكبر لأصدقائي الحميمين، حول الموسيقى، يسيطر عليّ نوع من الحزن الرقيق الذي يتذبذب بين الحلو والمر. إنها مجرّد هبة ريح، سيماء الموت. في لحظة تكون قد مضت. مع أنها تجعلني أدرك كم أنا بعيد بشكل لا محدود حتى عن أولئك الذين أقرب لي، لذا تبلغ نظرة الشر وجهي، التي من أجلها يجب أن تغفر لي.

ـ ماذا أغفر لك؟ فأنت لم تجترح أي ضرر لي. بالعكس، أنا الذي يجب أن يعتذر بسبب أسئلتي.

ضحك كافكا.

ـ الحل الأبسط: يجب أن أتقاسم اللوم معك. سوف ألوثك.

فتح كافكا دُرج طاولته وناولني مجلداً صغيراً زاهياً نشرته دار «أنسل فرلاج».

قرأتُ العنوان بصوت عال:

ـ حكايات رواها آباء الصحراء.

قال كافكا:

ـ إنها ساحرة. لقد تمتعتُ فيها بشكل كبير. الرهبان في الصحراء. لكن الصحراء ليست فيهم. إنها الموسيقى! لا حاجة لأن ترجع لي الكتاب.

***

يمكن لكافكا أن ينير المواضيع المثيرة للجدل بملاحظة مفردة. مع ذلك لم يحاول أن يظهر بمظهر المفكر أو حتى الذكي. مهما قال كان يبدو في فمه بسيطاً وواضحاً وطبيعياً. ولم يكن ذلك نتيجة لأي ترابط للكلمات، ولعبه بالملامح، أو نغمة صوته. إنها شخصية كافكا بأكملها التي أثرت على المستمع. كان هادئاً ورصيناً. مع ذلك فإنّ عينيه كانتا حيتين وذكيتين، مع أنهما تطرفان، بسبب حرجه اليائس، لو ذكرتُ الموسيقى أو عمله الأدبي في محادثاتنا.

قال مرة:

ـ الموسيقى بالنسبة لي مثل البحر. فهي تغلبني وتسحرني وتفتنني، مع ذلك أكون خائفاً بشكل فظيع من أبديتها. أنا في الحقيقة بحار رديء. ماكس برود مختلف تماماً. فهو يغطس رأسه أولاً في طوفان الصوت. إنه

سبّاح قنوات.

ـ هل ماكس برود عاشق للموسيقى؟

ـ إنه يفهم الموسيقى مثل القلة من الناس. في الأقل ذلك ما يقوله فتسلاف نوفاك.

ـ هل تعرف نوفاك؟

أومأ كافكا برأسه.

ـ قليلاً. نوفاك وبقية المؤلفين التشيك والموسيقيين هم مع ماكس بصورة مستمرة. إنهم يحبونه كثيراً. وهو يحبهم. يساعدهم كلهم، متى ما سنحت الفرصة. ذلك ما يروق لماكس.

ـ إذن لا بدّ من أنّ دكتور ماكس برود يتكلم التشيكية.

ـ بشكل ممتاز. إني أحسده. انظر

فتح أحد الرفوف الممتدة فوق طاولته:

ـ هناك مجلدان كاملان سنويان من المجلة الدورية «لغتنا». قرأتهما ودرستهما بحماس. من المؤسف أني لا أمتلك أعداداً سابقاً منها. أحب أن أحصل عليها. اللغة هي الموسيقى ونَفَس الوطن. لكني مصاب بالربو بشكل خطير، بما أنني لا أتكلم التشيكية ولا العبرية. أنا أتعلمهما كلاهما. لكن يشبه الأمر وكأنّي أطارد حلماً.كيف للإنسان أن يعثر خارج نفسه على شيء يجب أن يأتي من الداخل؟

أغلق كافكا الرفّ على طاولته.

ـ كاربفنغاسه[1] في الحي اليهودي، حيث ولدتْ، بعيدة جداً عن الوطن.

قلتُ لأني كنتُ منزعجاً من التعبير في عينيه:

ـ لقد ولدتُ في يوغسلافيا.

لكن كافكا هزّ رأسه ببطء.

ـ من الحي اليهودي إلى «تاينكرشه» مسافة بعيدة جداً. لقد جئتُ من عالم آخر.

في مناسبة أخرى، حين صدف أن تكلمنا عن الصفائيين[2] اللغويين التشيك قال: الصعوبة الكبرى للغة التشيكية هي ما يميّزها بصورة صحيحة من بقية اللغات. إنها شابة ولهذا فعلينا أن نحميها بشكل دقيق.

***

قال كافكا مرة:

ـ الموسيقى تخلق متعاً جديدة أكثر رقة وتعقيداً وخطراً. لكن الشعر يستهدف الكثير من المتع عن طريق إضفاء التفكير والتطهير والإنسانية عليها. الموسيقى تضاعف الحياة الحسّية؛ الشعر، من جهة أخرى، يضبطها ويهذّبها.

***

(1) ولد كافكا في كاربفنغاسه رقم 7 في يودنشتادت. في الكلام عن «الوطن» يقصد طبعاً الوطن اليهودي القومي. «حين يتحدث فيما بعد بهذه المحادثة عن المسافة البعيدة جداً من تاينكيرشه إلى الحي اليهودي، يعني بأنّه على الرغم من أنّ تاينكيرشه هي نفسها في الحي اليهودي، مع ذلك فإنها وقد أصبحت كنيسة فهي غريبة بشكل لا حدّ له عن محيطها.

(2) الذين يتبنون صفاء اللغة والأسلوب.

حاولتُ أن أوضّح المحتوى الفكري لمسرحية قرأتها.

سألَ كافكا:

ـ وهل كل هذا أُعلِن ببساطة؟

أجبتُ:

ـ كلا. يحاول المؤلف أن يقدّم تلك الأفكار بصورةٍ ملموسة.

هزّ رأسه بسرعة.

ـ صحيح تماماً. أن تقول شيئاً ببساطة غير كافٍ. يجب على المرء أن يمتلكه. ولأنّ تلك اللغة هي واسطة جوهرية، وشيءٌ حيّ، ووسط. مع ذلك، يجب عدم استعمال اللغة كوسيلة، لكن يجب أن تجري ممارستها وإخضاعها. اللغة هي خليلة دائمة.

***

قال عن أنطولوجيا الشعر التعبيري:

ـ أصابني الكتاب بالكآبة. يمدّ هؤلاء الشعراء أيديهم إلى الناس. لكنّ الناس يرون، لا الأيدي الودّية، بل القبضات المثبتة بعنف والموجهة إلى عيونهم وقلوبهم.

***

تكلمنا عن كتاب «القوانين» لأفلاطون الذي قرأته في طبعة نشرت في دار نشر «يوجين ديدريش فرلاج».

اعترضتُ على استثناء أفلاطون للشعراء من جمهوريته.

قال كافكا:

ـ ذلك شيء معقول تماماً. يحاول الشعراء أن يعطوا الناس رؤية مختلفة لكي يغيروا من الحقيقة. ولهذا السبب هم عناصر خطرة سياسياً، لأنهم يريدون أن يحدثوا تغييراً. لأنّ الدولة وكل خدمها المخلصين يرغبون بشيءٍ واحد فقط هو أن يبقوها دوماً.

* * *

صحبتُ فرانتس كافكا من مكتبه إلى بيته.

في مدخل بيت والديه التقى فجأة بفلكس ولتش وماكس برود وزوجته. تبادلوا بضع كلمات وخططوا للقاء في المساء في بيت أوسكار بوم.

حين غادرنا أصدقاء كافكا، تذكّر فجأة بأني لم ألتقِ زوجة برود من قبل أبداً.

قال:

ـ ولم أقدمك بصورة صحيحة. أنا حقاً آسف جداً.

قلتُ:

ـ لا يهمّ. على الأقل استطعتُ أن أنظر إليها بشكلٍ أفضل.

ـ هل راقت لك؟

قلتُ:

ـ تمتلك عينين زرقاوين مدهشتين.

اندهش كافكا.

ـ هل لاحظتَ ذلك حالاً؟

قلتُ بغرور:

ـ أقوم بدراسة للعينين. إنهما تفصحان لي أكثر من الكلمات.

لكن فرانتس كافكا لم يسمع. حدّق برزانة إلى الأفق.

قال:

ـ كل أصدقائي لهم عيون مدهشة. نور عيونهم هو الإشراق الوحيد في الزنزانة التي أعيش فيها. وحتى ذلك النور هو مجرد نور اصطناعي.

ضحك وأعطاني يده ثم دخل إلى البيت.

***

قال مرّة عن الأرق الذي كان يعاني منه:

ـ ربما يخفي أرقي خوفاً كبيراً من الموت. ربما أنا خائف بأن الروح ـ التي تغادرني في النوم ـ لن ترجع. ربما الأرق مجرد حسٍّ نشط بالخطيئة، الخائفة من إمكانية قضاء مفاجئ. ربما الأرق هو نفسه خطيئة. ربما هو رفض للطبيعي.

أشرتُ إلى أن الأرق مرض.

أجاب كافكا:

ـ الخطيئة أساس كل الأمراض. ذلك هو سبب الفناء.

***

ذهبتُ مع كافكا إلى معرض للرسم الفرنسي المقام بغاليري في شارع غرابن.

كانت ثمة لوحات لبيكاسو: حياة جامدة تكعيبية ونساء ملونات بالوردي بأقدام ضخمة.

قلتُ:

ـ إنه مشوِّه عنيد.

قال كافكا:

ـ لا اعتقد ذلك. إنه يسجل فقط التشويهات التي لم تتوغل لحد الآن في وعينا. الفن مرآة تمضي سريعاً مثل الساعة أحياناً.

التقطتُ له صوراً للوحات هيكلية.

قال كافكا:

ـ إنها أحلام بأميركا عجيبة فحسب، أرض عجائب ذات إمكانيات غير محدودة. ذلك ممكن فهمه تماماً، لأنّ أوربا أصبحت باطراد أرض القيود الممكنة.

***

رأينا مجموعة من الرسوم السياسية لغيورغ غروتس.

قلتُ:

ـ يا للحقد!

ابتسم كافكا ابتسامة غريبة.

قال:

ـ شباب خائب الأمل. إنه حقد ينبع من عدم القدرة على الحب. قوة التعبير

تأتي من ضعف محدد تماماً. ذلك مصدر اليأس والعنف في هذه الرسومات. إضافة إلى أنني رأيتُ في بعض الدوريات السنوية قصائد لغروتس.

أشار كافكا إلى الرسوم:

ـ إنها أدب على شكل صور.

* * *

أريتُ كافكا بعض الكتب الجديدة التي نشرتها شركة «نوغ ـ باور». بينما كان يقلب أوراق مجلد مصور لجورج غروتس قال:

ـ ذلك منظر مألوف للعاصمة ـ الرجل السمين ذو القبعة الرسمية يجثم على أموال الفقراء.

قلتُ:

ـ إنه مجرد ترميز.

قطّب فرانتس كافكا حاجبيه.

ـ تقول «مجرد»! يصبح الترميز في أفكار الناس صورة للحقيقة، التي هي غلطة طبيعية. لكن العيب موجود هنا.

ـ أتعني، سيدي الدكتور، بأنّ الصورة زائفة؟

ـ لم أقل ذلك تماماً. إنها صادقة وزائفة في الوقت نفسه. إنها صادقة بمعنى ما. وزائفة إذ إنها تعلن أن هذه الرؤية الناقصة هي الحقيقة كلها. الرجل السمين بالقبعة الرسمية يجلس على أرقاب الفقراء. ذلك صحيح. لكن الرجل السمين هو الرأسمالية، وذلك غير صحيح تماماً. الرجل

السمين يضطهد الرجل الفقير ضمن شروط نظام محدد. لكنه ليس النظام نفسه. حتى أنه ليس سيده. على العكس، الرجل السمين هو أيضاً مقيّد وذلك لم توضحه الصورة. الصورة غير كاملة. لهذا فهي ليست جيدة. الرأسمالية نظام علاقات تمضي من الداخل إلى الخارج، ومن الخارج إلى ذاتها.

ـ إذن كيف تتصورها؟

هزّ دكتور كافكا كتفيه وابتسم بحزن.

ـ لا أعلم. على أي حال نحن اليهود لسنا رسامين. لا نستطيع أن نصف الأمور بشكل جامد. نحن نراها دائماً في حالة تحول، وحركة وتغيير. نحن رواة قصص.

قطع دخول أحد الموظفين حديثنا.

حين غادر الزائر المزعج رغبت في العودة إلى موضوع الحديث الممتع الذي بدأنا به. مع ذلك قاطعني كافكا قائلاً:

ـ دعنا ننساه. راوي القصة لا يستطيع الحديث عن القصّ. إما أن يروي القصص أو يصمت. تلك هي المسألة. يبدأ عالمه يهتز داخله، أو يغور في الصمت. عالمي مات. وأنا احترقت.

***

أريتهُ صورتي الشخصية التي رسمها صديقي فلاديمير سايتشرا. كان كافكا مسروراً بالصورة الشخصية.

قال عدّة مرات:

ـ الرسم مدهش.

ـ هل تعني بأنّ ما يصح للحياة يصح للفوتوغراف؟

ـ ماذا تظن أنت؟ لا شيء أشدّ خداعاً من الفوتوغراف. الحقيقة، رغم كل شيء، هي شأن القلب. يستطيع الإنسان أن يحصل عليها من خلال الفن.

***

قال كافكا:

الحقيقة الفعلية غير واقعية دائماً. انظر إلى صفاء الروسم الخشبي الصيني الملون وطهره وصدقه. الكلام بتلك الشاكلة سيكون شيئاً ما!

***

نظرنا إلى «روسمات اللينو» لجوزيف تشابك في الدورية اليسارية «سرفن» (حزيران).

قلتُ:

ـ لا أستطيع أن أفهم تماماً شكل التعبير.

قال كافكا:

ـ إذن أنت لا تفهم المحتوى أيضاً. الشكل ليس تعبيراً عن المحتوى فحسب بل أيضاً جاذبيته، باب المحتوى والطريق إليه. لو نجح لكشفت الخلفية الخفية نفسها أيضاً.

***

أعطاني فرانتس كافكا بعض الأعداد من مجلة «برينر» التي تضمنت مقالات لثيودور هيكر، وترجمات لكيركيغارد وأيضاً مقالات لكارل ديلاغو عن جيوفاني سيغانتيني.

وحين قرأتها تزايد اهتمامي بهذا الرسام من جنوب الألب. لذا كنتُ مسروراً جداً حين أعطاني صديقي الممثل الشاب فرانتس ليدرر كتابات سيغانتيني ورسائله. أريتُ الكتاب إلى كافكا ولفت انتباهه خصوصاً الفقرة التالية التي أسرتني كثيراً:

«الفن ليس تلك الحقيقة التي توجد خارجنا. فذلك لا قيمة له ولا يمكن أن يكون فناً. إنه مجرد تقليد أعمى للطبيعة، أي، ببساطة عودة المادة إلى الطبيعة. لكن المادة يجب أن تشتغل عن طريق الروح قبل أن تتطور إلى فن أبدي».

أرجع فرانتس كافكا لي الكتاب عبر طاولة كتابته. ونظر للحظة داخل الفضاء، ثم التفت لي بقوة قائلاً:

ـ هل يجب أن تعمل المادة عن طريق الروح؟ ماذا يعني ذلك؟ يعني أن نجرّب، ولا شيء آخر سوى أن نجرّب ونجيد ما جرّبناه. ذلك ما يهمنا.

***

كان كافكا يعبر عن نظرة اندهاش حين أخبره بأني كنتُ في السينما. وفي إحدى المرات استجبتُ إلى هذا التغير في التعبير عن طريق سؤاله:

ـ هل تهوى السينما؟

أجاب كافكا بعد فترة من التفكير:

ـ في الواقع أنا لم أفكر بها أبداً. إنها دمية عجيبة. لكني لا أستطيع تحملها، ربما لأني «بصريّ» بالفطرة. أنا إنسان ـ عين. لكن السينما تزعج رؤية المرء. سرعة الحركات والتغير السريع للصور تجبر الناس على النظر

بصورة مستمرة من صورة لأخرى. النظر لا يخضع للصور، إنها الصور التي تسيطر على نظر الإنسان. إنها تُغرِق وعيه. تشمل السينما وضع العين داخل زيّ موحد، قبل أن تكون قد أصبحت عارية.

قلتُ:

ـ ذلك تصريح فظيع. العين نافذة الروح، كما يقول المثل التشيكي.

أومأ كافكا برأسه.

ـ الأفلام مصاريع حديدية.

***

بعد بضعة أيام عدتُ إلى هذه المحادثة، قلتُ:

ـ السينما قوة فظيعة. إنها أقوى من الصحافة إلى حدٍّ بعيد. فتيات المتاجر، موديلات، خياطات، كلهنّ يمتلكن وجوهاً مثل بربارا لا مار وماري بيكفورد وبيرل وايت.

ـ ذلك طبيعي تماماً. الرغبة بالجمال تحوّل النساء إلى ممثلات. الحياة الحقيقية هي مجرد انعكاس لأحلام الشعراء. أوتار قيثارة الشعراء المعاصرين هي أشرطة لانهائية من السليلويد.

***

تكلمنا عن الاستفتاء الأدبي الذي نشرته صحيفة في براغ، وقد بدأت بالسؤال: هل هناك فن للشباب؟

قلتُ:

ـ أليس من الغريب أن تبحث عن فن للشباب؟ هناك إما فن أو هراء، يختفي أحياناً تحت أقنعة من مختلف المذاهب والأنماط.

قال فرانتس كافكا:

ـ هدف الاستفتاء ليس «الفن» الجوهري بل المصطلح المحدود «شباب». ومن الواضح أنّ هناك شكوكاً خطيرة حول وجود جيل شاب فني. وفعلاً اليوم من الصعب أن تتصور جيلاً شاباً حرّاً وخالياً من العبء. الطوفان الفظيع لهذه السنوات الأخيرة أغرق كل شيء حتى الأطفال. إن الفساد والشباب بطبيعة الحال يستثني أحدهما الآخر بشكل متبادل. لكن ما هو الشباب اليوم؟ إنه صديق حميم للفساد. الناس يعرفون قوة الفساد. لكنهم نسوا قوة الشباب. لهذا فهم في شك من الشباب نفسه. وهل يمكن أن يكون ثمة فن بلا نشوة الثقة بالشباب؟

مدّ فرانتس كافكا ذراعيه، ثم جعلهما تسقطان مشلولتين في حضنه.

ـ الشباب ضعيف. الضغط من الخارج قوي جداً. أن تدافع وفي الوقت نفسه تكرّس ذاتك ـ ذلك يسبب تشنجاً يظهر على وجهك مثل تكشيرة. لغة الفنانين الشباب اليوم تخفي أكثر مما تكشف.

أخبرته بأن الفنانين الشباب الذين التقيت بهم في بيت ليديا هولتسنر كانوا عادة ناساً في حوالي الأربعين.

أومأ فرانتس كافكا برأسه.

ـ سيكون الأمر كذلك. العديد من الناس يسترجعون الآن شبابهم لأول مرة. إنهم يمرون لأول مرة بمرحلة الكاوبوي والهندي الأحمر.

وطبيعي ليس الأمر كذلك بحيث أنهم يفرون عبر ممرات الحديقة البلدية المسلحة بالأقواس والأسهم. كلا! يجلسون في السينما ويشاهدون أفلام المغامرات.السينما المعتّمة هي المصباح السحري لشبابهم الضائع.

***

في حديثه عن الكتّاب الشباب قال فرانتس كافكا:

ـ أنا أحسد الشباب.

قلتُ:

ـ أنت بنفسك لست كبير السن جداً.

ابتسم كافكا:

ـ أنا بعمر اليهودي، مثل اليهودي التائه.

ألقيت عليه نظرة خارج زاوية عيني.

وضع كافكا ذراعه حول كتفي.

ـ الآن أنت مصعوق. كان ذلك مجرّد جهد بائس لخلق نكتة. لكني أحسد الشباب حقاً. كلما ازداد كبراً أصبح أوسع أفقاً. لكن إمكانيات الحياة تصبح أصغر فأصغر. في النهاية يستطيع المرء أن يعطي مجرد نظرة واحدة للأعلى، ويمنح نفَسَاً للخارج. في تلك اللحظة من المحتمل أن الإنسان يفحص حياته بأكملها لأول وآخر مرة.

***

ألقى قائد الدادائية في ألمانيا ريتشارد هلسنبرغ محاضرة في براغ.

كتبت تقريراً عنها وأعطيته إلى كافكا.

قال بعد أن قرأ المقال:

ـ يجب أن يكون عنوان تقريرك «يويو» لا «دادا». جُملك مليئة بتوق إلى الكائنات الإنسانية. ذلك أمر جوهري مع توق إلى التطور، وإلى امتداد لـ«أنا» صغيرة للمرء، وللمجتمع. لذا أنت تهرب من عزلة الـ«أنا» الصغيرة الحزينة إلى داخل عالم من الحماقات الطفولية. إنه خطأ تلقائي ولهذا فهو ممتع. كيف للمرء أن يجد آخر بفقد نفسه؟ لكن الآخر ـ ذلك هو العالم بكل أعماقه المهمة ـ يكشف عن نفسه بالهدوء. لكن الطريقة الوحيدة للعثور على السلام هو أن ترفع أصابعك بالاتهام: «أنت، أنت!».

أحرقتُ المخطوطة.

***

كتبتُ مقالة عن رواية أوسكار بوم التي عنوانها «باب إلى المستحيل».

أعطاها فرانتس كافكا إلى فليكس ولتش الذي نشرها في منتصف دورية «الدفاع عن النفس». بعد بضع أيام قابلتُ في مكتب كافكا موظفاً ـ أظن أن اسمه كان «غوتلنغ» ـ سرعان ما بدأ يحلل المقالة.

كان نقده بالطبع عدائياً.

كانت مراجعتي، سويةً مع رواية بوم، في رأي المتكلم ـ «رؤى دادائية لعقل مريض».

لم أقل شيئاً.

لكن حين كرّر تأكيده حوالي 15 مرّة، تدخّل كافكا قائلاً:

ـ إذا كان دادا مريضاً فإنّ ذلك مجرد أعراض خارجية ولا شيء آخر. لكنك لن تقضي على المرض بعزل الأعراض وطمسها. على العكس سيزداد الأمر سوءاً. خراج مفرد ينفجر داخلياً أشد خطراً من عدة خراجات سطحية. لو أن هناك تحسّنا حقيقيا فيجب أن تذهب إلى جذر الحالة المرضية. حينئذ فقط سوف تختفي التشوهات الناتجة من الاعتلال.

لم يجب غوتلنغ.

أنهى المناقشة وصول موظف آخر.

حين كنتُ وحيداً مرة أخرى مع كافكا في المكتب سألته:

ـ هل تعتقد بأن تلك المقالة عن كتاب بوم كانت دادائية؟

ابتسم كافكا.

ـ لماذا تسأل؟ مقالتك لم تجرِ مناقشتها.

ـ لكن من فضلك...

أشار كافكا بإيماءة ازدراء من يده.

ـ ذلك ليس نقداً! الناقد هدّد كلمة «دادا» كطفلٍ صغير يلوّح بسيف مزيّف.يريد أن يدهشك بسلاح فظيع، لأنه يعلم جيداً بأنه في الواقع مزيّف. يكفي أن تواجههُ بسيف حقيقي لكي يهدأ الطفل، لأنه خائف من سيفه المزيف.

ـ إذن أنتَ لا تتحدث عن بوم، وهل ما كتبتهُ إلا عن دادا؟

ـ نعم، أنا أتقلّد سيفي.

قلتُ:

ـ لكنك تعتبر دادا علامة على مرض.

قال كافكا على نحو جادّ:

ـ دادا جريمة. العمود الفقري للروح تهشّم وانهار الإيمان.

ـ ما هو الإيمان؟

ـ من يمتلك الإيمان لا يستطيع أن يحدّده، والذي لا يمتلكهُ يستطيع فقط أن يعطي تعريفاً يكمن تحت ظل الرحمة المكبوتة. الإنسان ذو الإيمان لا يستطيع أن يتكلم والإنسان الذي بلا إيمان يجب أن لا يتكلم. وفي الواقع إنّ الأنبياء يتكلمون دائماً عن رافع الإيمان لا الإيمان وحده.

ـ إنهم صوت الإيمان الذي يصمت عن نفسه.

ـ نعم، هو كذلك.

ـ والمسيح؟

أحنى كافكا رأسه.

ـ إنه هوّة مليئة بالنور. يجب على الإنسان أن يغمض عينيه إذا أراد أن لا يسقط فيها. ماكس برود يكتب عملاً طويلاً اسمهُ «الوثنية والمسيحية واليهودية». ربما عند مناقشة الكتاب عليّ أن أصفّي ذهني قليلاً.

ـ هل تتوقع كثيراً من الكتاب؟

ـ لا من الكتاب فحسب، بل من كل لحظة على الأغلب. أحاول أن أكون خادماً حقيقياً للرحمة. قد تأتي أو لا تأتي. ربما هذا الانتظار الهادئ وغير

الهادئ في الوقت نفسه هو البشير بالرحمة، أو ربما هو الرحمة ذاتها. لا أعلم. لكن ذلك لا يزعجني. في الوقت نفسه، لقد كسبتُ أصدقائي بجهلي.

***

انخرطنا في مناقشة حول قيمة وعدم قيمة الاعترافات المختلفة.

حاولتُ أن أحصل على تصريح شخصي من كافكا؛ لكني فشلت.

قال فرانتس كافكا:

ـ يمكن فهم الإله شخصياً فقط. كل إنسان له حياته الخاصة وإلهه الخاص. حاميه وقاضيه. الرهبان والطقوس مجرد عكاز لحياة الروح المشلولة.

***

حين رأى كافكا رواية جريمة، بين الكتب التي في حقيبتي قال:

ـ لا حاجة أن تكون خجولاً من قراءة مثل هذه الأشياء. فرواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي هي رغم كل شيء رواية جريمة. وهاملت لشكسبير! إنها قصة تحرّي. في لب الفعل ثمة سرّ يظهر إلى السطح تدريجياً. لكن هل هناك أسر أعظم من الحقيقة؟ الشعر دائماً هو حملة بحث عن الحقيقة.

ـ لكن ما هي الحقيقة؟

كان كافكا صامتاً، ثم ابتسم ابتسامة كتومة.

ـ يبدو ذلك وكأنك تصطادني في عبارة فارغة. في الواقع، الأمر ليس كذلك. الحقيقة هي ما يحتاجها كل إنسان لكي يعيش، لكن لا يستطيع أن يحصل عليها أو يشتريها من أحد. كل إنسان يجب أن يعيد إنتاج نفسه من

الداخل، وإلاّ فإنه يموت. الحياة بلا حقيقة غير ممكنة. ربما الحقيقة هي الحياة نفسها.

***

أريتُ فرانتس كافكا الترجمة الألمانية لمقالات أوسكار وايلد بعنوان «نوايا» التي أعارني إياها ليو ليدرر.

تصفّح كافكا الأوراق وقال:

ـ إنها تشتعل وتغري إذ إنّ السمّ وحدهُ هو الذي يشتعل ويغري.

ـ ألا يروقك الكتاب؟

ـ لم أقل ذلك. على العكس: ربما يحبه المرء بسهولة جداً. وذلك هو أحد مخاطر الكتاب الكبيرة. لأنه خطير، ويتلاعب بالحقيقة. اللعب مع الحقيقة هو لعب مع الحياة.

ـ هل تقصد أنه من دون الحقيقة لا توجد حياة حقيقية؟

أومأ فرانتس كافكا برأسه بصمت.

وبعد هنيهة قال:

ـ غالباً ما يكون «هو» تعبيراً عن الخوف من سحق الحقيقة للإنسان. إنها إسقاط لضآلة الإنسان والخطيئة التي يخاف منها.

***

أخبرته بأنّ أبي وأنا زرنا دير الفرانسيسكان بالقرب من «فنتسلبلاتس» في براغ.

قال فرانتس كافكا:

ـ إنه مجتمع عائلي أُنشئ على الاختيار. الإنسان يحدّد طوعاً ذاته الخاصة، ويستسلم إلى ملكيته الحقيقية الأسمى، شخصه، لكي يعثر على الخلاص. يحاول أن يحقق حرية داخلية عن طريق الكبح الخارجي. ذلك معنى الخضوع الذاتي للقانون.

قلتُ:

ـ لكن لو أن إنساناً لا يعرف الشريعة، فأنّى له أن يحقق الحرية؟

ـ سوف تهزمهُ الشريعة. لو أنه لا يعرف الشريعة فسوف يساق بالقوة ويُضرب بسوط المعرفة.

ـ تعني أن كل إنسان سوف يبلغ المعرفة الحقيقية عاجلاً أم آجلاً.

ـ لم أقل ذلك تماماً. لم أتكلم عن المعرفة، لكن عن الحرية كهدف. المعرفة مجرد طريقة.....

ـ للإنجاز؟ إذن تصبح الحياة مجرد مهمة وتفويض.

أشار كافكا بإيماءة يائسة.

ـ تلك هي المسألة تماماً. الإنسان لا يستطيع أن يرى ما وراءه. إنه في الظلام.

***

كان فرانتس كافكا أول شخص يأخذ حياتي الروحية في اعتباره بشكل جدّي. فهو يتكلم معي مثل بالغ لذا عزّز ثقتي بنفسي.أصبح اهتمامه بي هدية مدهشة لي. كنتُ دائماً واعياً لهذا. حتى أني في إحدى المرات عبرتُ بنفسي عن هذا الإحساس له.

ـ ألم أضيّع وقتك؟ أنا في غاية الحماقة. أعطيتني الكثير من المساعدة ولم أمنحك شيئاً.

من الواضح أن كافكا كان محرجاً من كلماتي.

قال بشكل ملطّف:

ـ الآن، الآن أنت طفل. وليس لصاً. صحيح إني منحتك وقتي، لكنه لا يعود لي بل إلى «مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال». كلانا تآمر لكي يسرقه من وقتي. مع ذلك، ذلك أمرٌ رائع! إضافة إلى أنك لستَ أحمقَ. إذن توقف عن استعمال مثل هذه العبارات، التي ستجربني على الاعتراف بأني أستمتع بإخلاصك الغض وعدم فهمك.

***

نزهة على رصيف الميناء.

أخبرتُ كافكا بأني كنتُ مريضاً في الفراش بسبب الأنفلونزا وعملتُ في مسرحية عنوانها «سول».

أبدى كافكا اهتماماً كبيراً بهذه المغامرة الأدبية، التي رغبت من أجلها أن أوظف مسرح الطوابق الثلاثة. ثلاث منصات، الواحدة فوق الأخرى، تمثل ثلاثة عوالم روحية: على الأرضية، والشارع أو منبر للناس. فوقها قصر الملك، أو بيت الفرد.وفوقه معبد السلطة الروحية المؤقتة، التي يتكلم صوت غير مرئي من خلالها.

قال فرانتس كافكا:

ـ إذن الكل هرم تختفي قمته في الغيوم. ومركز الجاذبية؟ أين مركز الجاذبية في عالم مسرحيتك؟

أجبتُ:

ـ في الأسفل، في كتلة الناس الأساسية. على الرغم من قلة الشخصيات الفردية، إلا أنها مسرحية تدور حول الجماهير المجهولة.

قلّص فرانتس كافكا حاجبيه الثخينين، ومطّ قليلاً شفته السفلى، ورطّب شفتيه بطرف لسانه وقال دون أن ينظر لي:

ـ أظن أنك تبدأ من فرضية زائفة. المجهول يعني المغمور نفسه. غير أنّ الشعب اليهودي لم يكن أبداً مغموراً. على العكس، أنه العِرق المختار لإله شخصي لا يمكن أن يغطس إلى مستوى المجهول ولهذا السبب يصبح شعباً فاقد الحيوية، طالما بإمكانه أن يتمسّك بتحقيق الشريعة. يمكن للبشرية أن تصبح جماهير رمادية بلا شكل ومغمورة من خلال السقوط من الشريعة التي تمنح لها الشكل. لكن في هذه الحالة لا يوجد فوق وتحت. الحياة ممهّدة داخل وجود خالص. لا صراع ولا دراما، بل هناك استهلاك للمادة وتعفّن. لكن ذلك غير عالم الكتاب المقدّس واليهود.

دافعتُ عن نفسي.

ـ بالنسبة لي، المسألة ليست اليهود والكتاب المقدس. فمادة الكتاب المقدس بالنسبة لي مجرد وسيلة لتقديم الجماهير اليوم.

هزّ كافكا رأسه.

ـ بالضبط! إن ما تهدف إليه زائف. لا تستطيع أن تحوّل الحياة إلى ترميز للموت. سيكون ذلك خطيئة.

ـ ماذا تقصد بالخطيئة؟

ـ الخطيئة هو الانصراف عن رسالة المرء، وسوء الفهم وفقدان الصبر والكسل ـ تلك هي الخطيئة. الشاعر لديه مهمة قيادة المنعزلين والفانين إلى الحياة الأبدية، وإذعان كل ما هو عرضي إلى الشريعة. الشاعر لديه رسالة نبوية.

قلتُ:

ـ إذن الكتابة تعني القيادة.

قال كافكا:

ـ الكلمة الصحيحة تقود؛ والكلمة غير الصحيحة تضلل. فليس من المصادفة بأن الكتاب المقدس يدعى ريت Writ. إنه صوت الشعب اليهودي، الذي لا ينتمي إلى ماضٍ تاريخي، لكنه معاصر تماماً. تعامل مسرحيتك كأنها حقيقة تاريخية محنّطة، وذلك أمر زائف. لو أفهمك بصورة صحيحة، إنك ترغب أن تجلب الجماهير المعاصرة إلى المسرح. إنهم لا يملكون شيئاً مشتركاً مع الكتاب المقدس. ذلك هو لب مسرحيتك. شعب الكتاب المقدس لديهم رابطة بالأفراد عن طريق الشريعة. لكن جماهير اليوم تقاوم أي شكل من الرابطة. فهم منفصلون بسبب مخالفتهم الشريعة. وتلك هي القوة المحفزة لحركتهم الدائمة. الجماهير تركض وتسرع وتسير في الرعد خلال عصرنا.إلى أين؟ من أين يأتون؟ لا أحد يعرف. كلما ساروا أكثر قلّت فرص تحقيقهم لهدفهم. يستعملون قوتهم بلا هدف. يعتقدون بأنهم في حركة دائبة.لهذا يراوحون في مكانهم ويسقطون في الفجوة. هذا كل ما في الأمر. البشرية فقدت وطنها.

سألتُ:

ـ إذن كيف تفسّر تطور النزعة القومية؟

أجاب فرانتس كافكا:

ـ ذلك هو بالضبط البرهان على ما أقول. الناس يكافحون من أجل الحصول على مالا يملكون. التقدم التقني المشترك بين الأمم جرّدهم أكثر فأكثر من ميزاتهم القومية. لذا يصبحون قوميين. النزعة القومية المعاصرة هي حركة دفاع ضد التجاوزات الصريحة للمدنية. أفضل ما يراه المرء هو حالة اليهود. لو شعروا أنهم في وطنهم وبيئتهم واستطاعوا بسهولة أن يتفاهموا معه، فلن تكون ثمة صهيونية. لكن ضغط بيئتنا يجعلنا نرى ملامحنا الخاصة. نحن ذاهبون للوطن. إلى جذورنا.

ـ وهل تجرؤ إذن على القناعة بأن الصهيونية هي الطريق الصحيح الوحيد؟

ابتسم كافكا ابتسامة خجولة.

ـ يعلم المرء صحة أو خطأ الطريق حين يبلغ الهدف. إننا على الأقل ذاهبون الآن. إننا في حركة دائبة لهذا سوف نحيا. يتزايد حولنا العداء للسامية، لكن كل ذلك له منافع. يقول التلمود أننا نحن اليهود ننتج الأفضل مما لدينا مثل الزيتون حين نُسحق.

قلتُ:

ـ اعتقد بأنّ حركة العمل التقدمي لن تسمح بأي تطور آخر للعداء للسامية.

لكن فرانتس كافكا أحنى رأسه بحزن.

ـ إنك على خطأ. اعتقد بأنّ العداء للسامية يستولي على الجماهير. ويمكن للمرء أنّ ذلك يحدث حتى في «مؤسسة التأمين ضد حوادث

العمال». إنه من خلق حركة العمل. لذا يجب أن يمتلأ بروح التقدم المشرقة.لكن ما الذي يحدث؟ إن المؤسسة عش مظلم للبيروقراطيين، وأعمل فيها كيهودي منعزل.

قلتُ:

ـ ذلك أمر بائس.

ـ نعم، الإنسان بائس، لأنه يصبح وسط جماهير متزايدة بين دقيقة وأخرى أكثر انعزالاً.

***

كنتُ مع فرانتس كافكا في مكتبه.

جلس مرهقاً وراء طاولته. ذراعاه معلقتان للأسفل. شفتاه مضغوطتان بإحكام. ابتسم ومدّ يده لي.

ـ شهدتُ ليلة مقيتة جداً.

ـ هل ذهبتَ إلى الطبيب؟

زمّ فمه.

ـ الطبيب.....

رفع راحة يده اليسرى للأعلى ثم تركها تسقط.

ـ لا يمكن للإنسان أن يهرب من مصيره. الإمكانية الوحيدة أن ينظر وينسى بأن ثمة لعبة تُلعب معنا.

***

فراو سفاتك التي كانت تعيش في «زيزكوف» اعتادت على العمل

كخادمة في بيت أبي عند الصباح. وفي المساء كانت تعمل كخادمة نهارية في «مؤسسة التأمين ضد حوادث العمال». رأتني عدة مرات مع فرانتس كافكا، الذي كانت تعرفه، وفي أحد الأيام بدأت تتكلم عنه.

ـ دكتور كافكا رجل لطيف. إنه مختلف تماماً عن الآخرين. تستطيع أن تلمس ذلك حتى في الطريقة التي يعطيك بها شيئاً ما. الآخرون يسلمونه لك وكأنك تستجدي حين تأخذه. إنهم لا يعطونك ـ بل يهينونك ويذلونك. غالباً ما يود المرء أن يرمي بقشيشهم بعيداً. لكن دكتور كافكا يعطي حقاً، بطريقة تشعرك بالمتعة. مثلاً، حفنة العنب التي لم يأكلها ذلك الصباح. إنها من بقايا الطعام. تعرف كيف يتصرف بها أغلب الناس. لكن دكتور كافكا لن يتركها أبداً تبدو مثل قطعة لا طعم لها. إنه يترك العنب أو أي فاكهة مرتبة بشكل جميل فوق الطبق. وحين أدخل إلى المكتب يقول: بالمناسبة هل من الممكن أن استفاد منها. نعم، دكتور كافكا لا يعاملني كخادمة مسنّة. إنه رجلٌ لطيف.

فراو سفاتك كانت على حق. لدى كافكا فن الإعطاء. فهو لا يقول أبداً: خذ هذا، إنه هدية. حين يعطيني كتاباً أو مجلة كل ما يقوله دائماً: لا حاجة لإرجاعه.

* * *

تكلمنا عن ن. قلتُ بأن ن. كان أحمق. ردّ كافكا:

ـ أمرٌ إنساني أن تكون أحمق. العديد من الناس الأذكياء لا يمتلكون الحكمة لهذا فهم في المطاف الأخير حتى لا يملكون الذكاء. إنهم غير إنسانيين فحسب نتيجة الخوف من سوقيتهم التافهة.

* * *

كان مع كافكا موظف لديه طريقة خشنة في الكلام.

سألتُ حين كنا وحيدين في المكتب:

ـ أي نوع من الرجال هذا؟

قال كافكا:

ـ هذا دكتور ن.

قلتُ:

ـ إنه بهيمة.

ـ لماذا؟ إنه يتبع نوعاً مختلفاً من العُرف. ربما تعلّم أنّ السلوك الجيد يجعل محفظة الحرير من إذن الخنزيرة[1]. لذا يفضل أن يرتدي ملابس بيتية بدلاً من معطف الفراك. تلك هي المسألة برمتها.

***

خريف رطب وشتاء مبكر وقاسٍ على نحو مدهش، فساءت حالة كافكا المرضية.

بقت طاولته في المكتب فارغة ومهجورة.

قال دكتور «ترمل» الذي جلس على الطاولة الأخرى:

ـ إنه محموم. ربما لن نراه مرة أخرى.

رجعتُ إلى البيت حزيناً.

---

(1) من المثل المشهور «إنك لا تستطيع أن تصنع محفظة حرير من إذن خنزيرة» أي لا يمكن صنع شيء جيّد من آخر رديء.

لكن في أحد الأيام كان فرانتس كافكا في المكتب مرة أخرى. شاحباً ومنحنياً ومبتسماً.

أخبرني بصوت مرهق رقيق بأنه جاء ليسلّم بعض الوثائق ويأخذ أوراقاً شخصية متنوعة من طاولته. قال إنه ليس متوعكاً. في الأيام القليلة القادمة كان يذهب إلى «مرتفع تاترا» للاستجمام في المصحّة.

قلتُ:

ـ ذلك أمر جيد. اذهب بأسرع ما يمكن لو أتيح لك.

ابتسم كافكا بحزن.

ـ ذلك أمر مُغضب وصعب بالضبط. في الحياة إمكانيات عديدة جداً، وكل منها يعكس استحالة وجود المرء التي لا مهرب منها.

تكسّر صوته في سعالٍ جاف متشنج سرعان ما سيطر عليه.

ابتسم أحدنا للآخر.

قلتُ:

ـ انظر، سيكون كل شيء على ما يرام.

قال فرانتس كافكا ببطء:

ـ الحالة كانت على ما يرام. لقد قلتُ نعم لكل شيء. وبهذه الطريقة تصبح المعاناة افتتاناً، والموت ـ إنه مجرد عنصر في الوجود الجميل.

***

عند افتراقنا قبل رحيله إلى المصحة في «تاترا» قلتُ:

ـ سوف تشفى وتعود بصحة جيدة. المستقبل سوف يعوّض عن كل شيء. سوف يتغير كل شيء.

ابتسم كافكا ووضع أصبع سبابة يده اليمنى على صدره.

ـ كان المستقبل هنا معي. التغيير الوحيد أن أجعل الجروح المخفية مرئية.

أصبحتُ نافد الصبر.

ـ إذا لم تؤمِنْ بالعلاج، لماذا تذهب إلى المصحّة؟

انحنى كافكا على منضدة كتابته.

ـ المتهم دائماً يناور من أجل أن يؤمّن تأجيلاً للحُكم.

* * *

رجعتُ مع صديقتي هيلين سلافيتشك من «شلومتس» إلى «براغ». ذهبنا إلى أبي في مكتبه لنعلن وصولنا. التقينا على السلّم بفرانتس كافكا. قدمته لهيلين. وبعد يومين قال لي:

ـ النساء فخاخ، بانتظار الرجال من كل الجهات من أجل أن يسحبوهم إلى المتناهي فحسب. إنهنّ يفقدنَ خطرهنّ إذا ما سقط أحدهم في الفخ. لكن بحكم العادة، لو أنّ أحدهم تغلب على الفخ حينئذ تكون كل فكوك شرك الأنثى مفتوحة ثانيةً.

* * *

الشاب ف. وانتحر بسبب علاقة غرامية تعسة.

ناقشنا القضية.

قال فرانتس كافكا أثناء حديثنا:

ـ ما الحب؟ إنه بسيط رغم كل شيء. الحب كل شيء يحسّن ويوسّع ويغذي حياتنا. بقممه وأعماقه. الحب فيه مشاكل قليلة كما السيارة. المشاكل الوحيدة هي السائق والمسافرون والطريق.

***

أخبرتهُ عن صديق دراستي و. الذي أغرتهُ، قبل عشر سنوات، مربيته الفرنسية. بعد ذلك أصبحَ خائفاً من البنات الشابات، حتى أخته، والآن هو تحت العناية الطبية للمحلّل النفسي الدكتور بوتسل.

قال كافكا:

ـ الحب ينكأ جروحاً لن تشفى، لأنه يظهر دائماً يداً بيد مع الفسوق. إرادة المحبوب وحدها بإمكانها أن تفصل الحب عن الفسوق. لكن بعض الناس يائسون مثل صديقك فليس لديه إرادة خاصة لذا تلوّث بالفسوق. إنه ضحية حيرة المراهقة. مثل هذه الأمور يمكن أن تؤدي إلى ضرر مهلك. ملامح إنسان غضبان غالباً ما تكون مجرد تعبير عن ارتباك صبي ودهشته.

***

مرة، وفي أثناء نزهتنا معاً، تحدثتُ عن صديقتي هيلين س. قال كافكا:

ـ في لحظة الحب لا يكون الإنسان مسؤولاً عن نفسه فحسب بل عن بقية الناس. مع ذلك يجد نفسه في الوقت ذاته في حالة تسمم تفسد قواه في الحُكم. محتوى «الأنا» الإنسانية حينئذ يكون أعظم من الحقل الضيق لرؤية وعيه المباشر.الوعي هو مجرد جزء من الأنا. مع ذلك فإنّ كل قرار

يعطي اتجاهاً جديداً إلى الأنا. وبهذه الطريقة تبرز أكثر النزاعات شيوعاً وأصعبها، من خلال سوء الفهم.

***

في الحديث عن س. قال كافكا:

ـ جذر كلمة «حسّي» هو إحساس. ولهذه مغزى غير محدد تماماً. بإمكان المرء أن ينجز الحسّ فقط من خلال الأحاسيس. طبعاً، هذا المسار مثل كل آخر له مخاطره. ربما يفضّل المرء الوسائل إلى النهاية. وبهذه الطريقة ربما يؤول إلى الحسيّة، التي تميل إلى صرف انتباهه عن الحسّ.

***

أتذكّر بأني اعتدتُ على ملاحظة أنّ فرانتس كافكا لديه حبّ كبير للتوريات الساخرة والحيل اللفظية من النوع الشخصي جداً. مع ذلك بإمكاني أن أعثر على مثال واحد فقط في مذكرتي.

لقد أخبرتُه بأنه في الصف الرابع لمدرستي الثانوية دأبنا على عمل نشط في إعارة نسخ من رواية «الأمير كوتشك» لأوتو يوليوس بيبوم[1]. قلتُ:

ـ كان الوصف لفسوقه هو الذي جذبنا.

قال كافكا:

ـ كلمة فاسترل Wastrel بالنسبة لي تستحضر دائماً فكرة الأرض الخراب والضياع. الفاسترل ضياع في الخراب.

---

(1) رواية يوليوس بيربوم الإباحية «الأمير كيتشوك» ـ 1907 لها عنوان فرعي: مغامرة وآراء ولعنة خليع» وهنا يلعب كافكا على الكلمتين Wuiste waste (خراب) وWustling debauchee (خليع) التي تترجم هنا «خراب».

قلتُ:

ـ المرأة هي الخراب.

هزّ فرانتس كافكا كتفيه.

ـ ربما. بئر المتعة هو بئر عزلته. كلما شرب أصبح أكثر شحوباً. في النهاية لم يعد يطفئ عطشه. لذا يستمر بالشرب، لكن عطشه لن يتوقف. ذلك هو الفاسترل (الضياع).

***

مقابل البناية القديمة لمؤسسة التأمين ضد حوادث العمال على نهر بوريتش كان فندق قديم مصبوغ بالبني الذهبي. كان بيتاً من طابق واحد اعتادت النساء غالباً أن يمشين ذهاباً وإياباً أمامه. مرة حين كنتُ أنتظر دكتور كافكا أمام مكتب التأمين، قال:

ـ شاهدتُ من الأعلى كم كانت نظراتك كثيفة وأنت تراقب مسير الفتيات. لذا أسرعتُ.

شعرت بالخجل لذا قلتُ:

ـ النساء لا يثرنَ اهتمامي. في الواقع إني أهتم فقط بزبائنهنّ.

نظر كافكا نحوي نظرة جانبية، ثم حدّق مباشرة للأمام، وقال بعد هنيهة:

ـ اللغة التشيكية عميقة ودقيقة على نحو مدهش. مصطلح «الوهج المستنقعي»[1] لهذا النوع من النساء صحيح تماماً. كم يجب على الرجال

(1) ضوء طيفي مائل للزرقة، يُشاهد أحيانًا فوق المستنقعات والمقابر. ويعتقد العلماء بأنه

أن يكونوا تعيسين ومهجورين وجامدين حين يرغبون في تدفئة أجسامهم بواسطة غازات المستنقعات! لا بدّ من أن يكونوا من البؤس والضياع بحيث أنّ أي نظرة فضولية ممكن أن تؤذيهم. لذا يجب على المرء أن لا يراقبهم. لكن لو أدار رأسه بعيداً فربما دلّت كعلامة على الاحتقار. إنّ المسألة صعبة... الطريق إلى الحبّ يمضي دائماً عبر الفسوق والتعاسة. لكن لو أنّ أحداً استخفّ بالطريق فربما يخطئ الهدف بسهولة.

لهذا فإنّ على الإنسان أن يعاني بتواضع من مختلف شرور الطريق. وبهذه الطريقة فقط سوف يصل إلى هدفه ربما.

***

في أثناء زياراتي إلى فرانتس كافكا في المكتب على نهر البون، تعرض زواج والديّ إلى أزمة خطيرة. لقد عانيت بسبب الخلافات العائلية. شكوت الأمر إلى كافكا واعترفتُ بأنّ المشاكل حولي كانت حافزاً حاسماً لجهودي الأدبية.

قلتُ:

ـ لو أنّ الأمور كانت مختلفة في البيت، فربما لن أكتب أبداً. أريد أن أهرب من القلق، وأغلق الصوت حولي وداخلي، لذا أنا أكتب. تماماً مثلما يرتكب الناس أموراً حمقاء مع منشار النار[1] لكي يقضوا على ضجر

---

ينجم عن الاحتراق الطبيعي للميثان ـ غاز المستنقعات ـ في الغالب ما يبدو الوهج المستنقعي وكأنه يبتعد أو يتلاشى عند الاقتراب منه. وكان يعتقد في القديم بأنه روح تستمتع بتضليل المسافرين، فالناس الذين كانوا يتبعون مثل ذلك الضوء، كانوا يجدون أنفسهم تائهين في مستنقع بلا أمل في النجاة.

(1) أداة لإشعال النيران بنشر شيء بقطعة خشب للحصول على جمرة.

مسائهم في البيت، لذا أرمّم الكلمات والجمل وأصفها في فقرة معاً، لكي أحصل على مبرر لوحدتي وأبعد نفسي عن محيطي الذي يخنقني.

قال كافكا:

ـ أنت على حق تماماً. الكثير من الرجال يفعلون الشيء نفسه. في إحدى رسائله يكتب فلوبير بأن روايته هي صخرة يلجأ إليها لكي لا يغرق في موجات العالم حوله.

قلتُ مبتسماً:

ـ حسنٌ، أنا غوستاف أيضاً، لكني لستُ فلوبير.

ـ إنّ تقنية العادات الصحية لا تدخّر للأفراد النادرين. لذا فإنّ اسم فلوبير لن يحرجك، سوف أعترف بأني في فترة معينة فعلت بالضبط مثلما فعلت أنت. لكن في حالتي كانت الأمور أكثر تعقيداً بقليل. بالخربشة أهرب للأمام من نفسي لكي أمسك بها عند سارية النهاية. لا أستطيع الهرب من نفسي.

***

كانت المشكلة بين أمي وأبي تنعكس في أحاديثي مع كافكا.

قلتُ:

ـ لا يمكنني تحمّل ما يسمى بالحياة العائلية.

قال كافكا بتعاطف خفي:

ـ ذلك خطأ. كيف يكون الحال لو أنك كنت تشاهد فحسب حياة عائلتك؟ ستعتقد العائلة بأنك كنت تشارك حياتهم ويكونون قانعين. في الواقع سيكون ذلك صحيحا بشكل جزئي. ستعيش مع عائلتك، لكن

بشروط مختلفة عنهم. سيكون الأمر كذلك. ستكون خارج الدائرة، ووجهك تحوّل للداخل نحو العائلة، وسيكون ذلك كافياً. وبين آونة وأخرى ربما ترى صورتك أيضاً منعكسة في أعين عائلتك ـ صغيرة تماماً كأنها رُسِمت على كرة زجاجية في الحديقة.

قلتُ:

ـ إنّ ما تقترحهُ هو درس خالص في البهلوانيات الروحية.

هزّ كافكا رأسه قائلاً:

ـ صحيح تماماً. إنها بهلوانيات كل يوم. وهي خطيرة، لأنّ المرء لا يعي بها. مع ذلك فربما لا تكسر رقبة المرء بل الروح نفسها. لا يموت أحد بسببها، لكنها تستمر في الوجود كونها أحد متقاعدي الحياة المستحقين.

ـ مَنْ مثلاً؟

ـ لا أحد. يستطيع المرء أن يعطي أمثلة عن الاستثناءات. لكن ما يسمّى بالناس الحصيفين هم عادة أولئك الذين تعوقهم الحياة. وهم الأغلبية المسيطرة، ولا تسمح بأمثلة تنعكس بشكل غير مفضل على أنفسهم.

***

في إحدى المرات، حين كنتُ أشكو من الخلافات داخل عائلتي، قال كافكا:

ـ لا تثر نفسك. كن هادئاً. الهدوء فعلاً علامة على القوة. لكن الهدوء ربما يساعد المرء أيضاً في تحقيق القوة. ذلك هو قانون المتضادات. فكن هادئاً. الهدوء والطمأنينة تجعلان المرء حراً ـ حتى وهو على المشنقة.

***

أخبرتُ كافكا بأنّ أبي لن يسمح لي بدراسة الموسيقى.

سأل كافكا:

ـ وهل ستخضع إلى أمر أبيك؟

أجبتُ:

ـ ولماذا عليّ أن أخضع؟ لديّ عقل خاص بي.

نظر كافكا لي بشكل جاد جداً.

قال:

ـ استعمال عقلك غالباً ما يكون الطريقة الأسهل لفقدانه. طبعاً أنا لا أقول أي شيء مضاد لرغبتك في دراسة الموسيقى.على العكس! العواطف القوية والعميقة تلك التي يمكن أن تتحمل تجربة العقل.

قلتُ:

ـ الموسيقى ليست عاطفة بل فناً.

لكن كافكا ابتسم.

ـ هناك عاطفة وراء كل فن. ذلك السبب في أنك تكافح وتعاني من أجل موسيقاك. ذلك هو السبب في عدم خضوعك لأوامر الآخرين، لأنك تحب الموسيقى وكل ما تضمّن أكثر من والديك. تلك هي طريق الفن. يجب على الإنسان أن يرمي بحياته بعيداً لكي يفوز بها.

***

حين بلغتْ الخلافات بين أمي وأبي مرحلة دعاوى الطلاق، أخبرتُ كافكا بأني عازم على مغادرة البيت.

هزّ كافكا رأسه ببطء.

ـ ذلك شيء مؤلم. لكن هو أفضل شيء يفعله الإنسان في مثل هذه الظروف. هناك بعض الأمور يحققها المرء عن طريق قفزة مدروسة في الاتجاه المعاكس. على المرء أن يمضي في كل اتجاه لكي يعثر على البيت الذي فقده.

أخبرته بأني أود أن أكون موسيقاراً في الليل فقال:

ـ ذلك أمر سيء للصحة إضافة إلى أنك تقتلع نفسك من المجتمع الإنساني. الجانب الليلي من الحياة يصبح جانبها النهاري بالنسبة لك، وما هو نهار لناس آخرين يتغير إلى حلم. لقد هاجرتَ دون أن تلاحظ ذلك إلى نقائض العالم حولك. والآن أنت شاب، لن تلاحظ أي شيء خطأ، لكن لاحقاً، في بضع سنوات، سوف تغلق عينيك برعب أمام الفجوة التي داخلك.سوف تفقد قوة الرؤية، وموجات العالم سوف تغلق فوق رأسك.

***

قبل الاستماع إلى قضية طلاق أمي وأبي، زرتُ فرانتس كافكا. كنتُ مضطرباً، مليئاً بالألم والإجحاف. حين استنفدتُ كل شكاواي، قال كافكا لي:

ـ أهدأ وكن صبوراً. دع الشر والقلق يمران فوقك بهدوء. لا تحاول أن تتجنبهما. على العكس، راقبهما بحذر. دع الفهم الفعال يأخذ مكان الاهتياج الانعكاسي، وسوف تقوى على مشكلتك.يستطيع الإنسان أن يحقق العظمة عن طريق تجاوز ضالته.

***

في صيف عام 1924 كنت في أوبرجيورجنتال في بروكس. وفي يوم الجمعة 20 حزيران، أكرر في يوم الجمعة 20 حزيران تسلّمتُ رسالة من صديق في براغ هو الرسام أريخ هيرت.

كتب: «علمتُ توّاً من هيئة التحرير لصحيفة «تاغبلات» بأن الكاتب فرانتس كافكا قد توفي في 3 حزيران في مصحة خاصة صغيرة بكيرلنغ بالقرب من فيينا. غير أنه دُفِن في يوم الأربعاء 11 حزيران 1924 بالمقبرة اليهودية في شتراشنتس.

نظرتُ إلى صورة أبي الصغيرة المعلقة على الجدار فوق فراشي.

لقد رحل عن هذه الحياة بإرادته الحرة في 14 آيار 1924.

بعد واحد وعشرين يوماً لاحقاً، وفي 3 حزيران مات كافكا.

واحدٌ وعشرون يوماً لاحقاً..

واحدٌ وعشرون يوماً..

واحدٌ وعشرون..

بالضبط كان عمري، إذ تحطّم أفق شبابي العاطفي والفكري.

***

انتهى

# ملحق صور

المنزل الذي عاش فيه فرانتز كافكا في براغ من عام 1889 إلى عام 1896

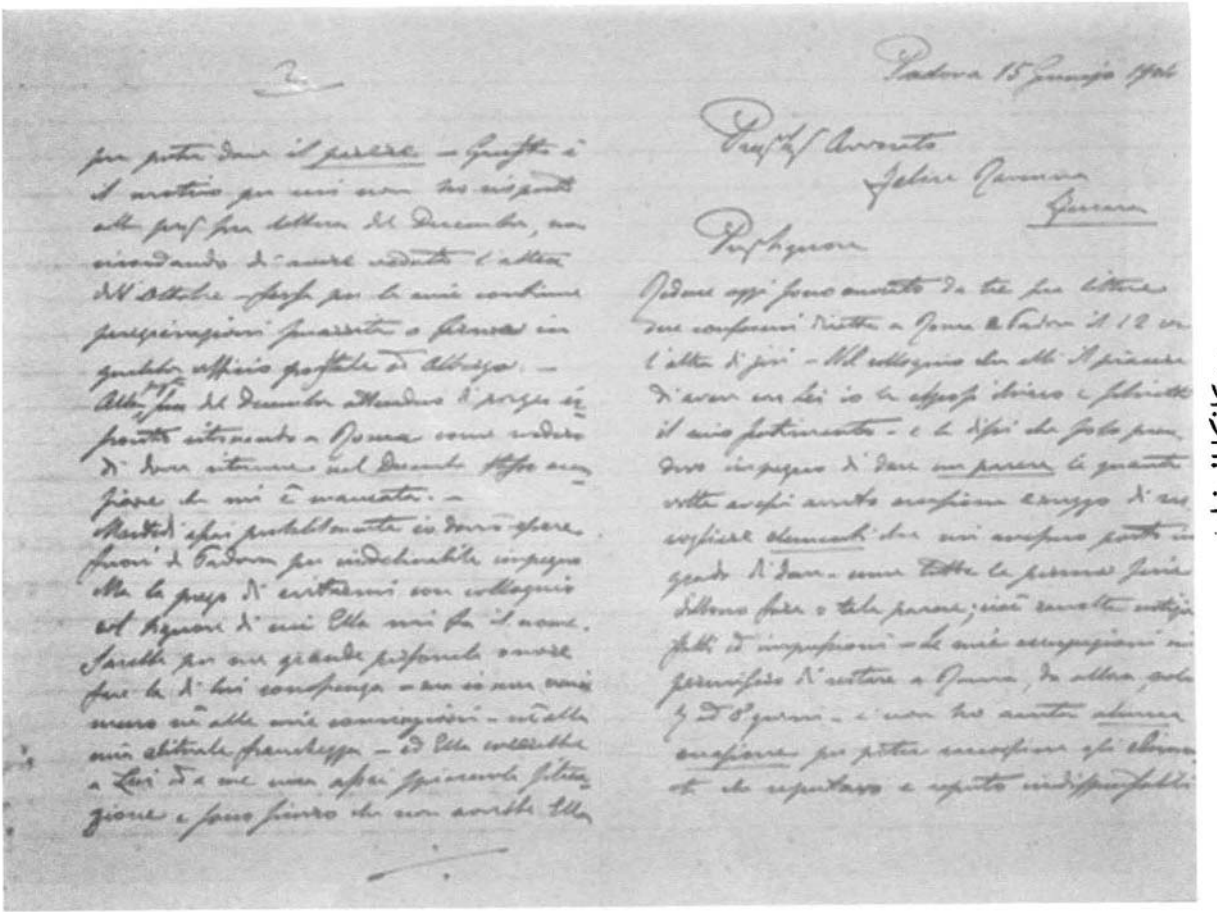

من كافكا إلى فيليس

قبر فرانتز كافكا في براغ صممه ليوبولد إيرمان

هرمان وبولي كافكا (والديه)

ماكس برود وفرانتز كافكا في براغ 1937

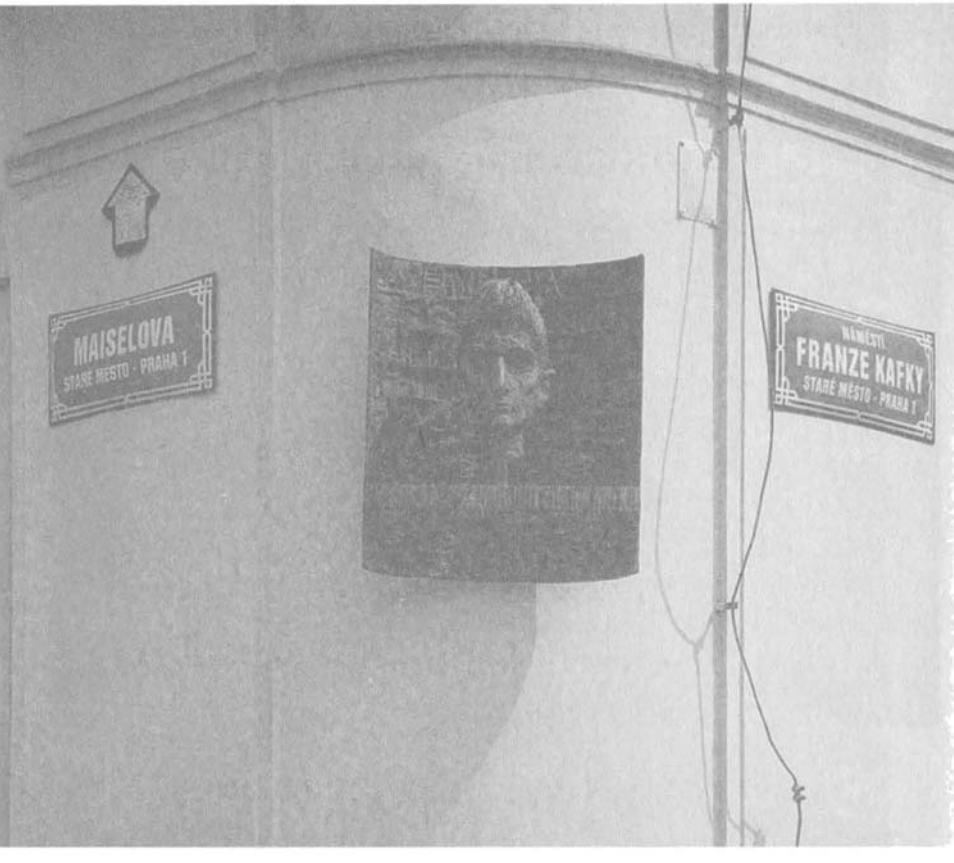


لوحة بمناسبة ميلاد فرانتز كافكا في براغ
صممها كاريل هلاديك وبان كابليك 1966

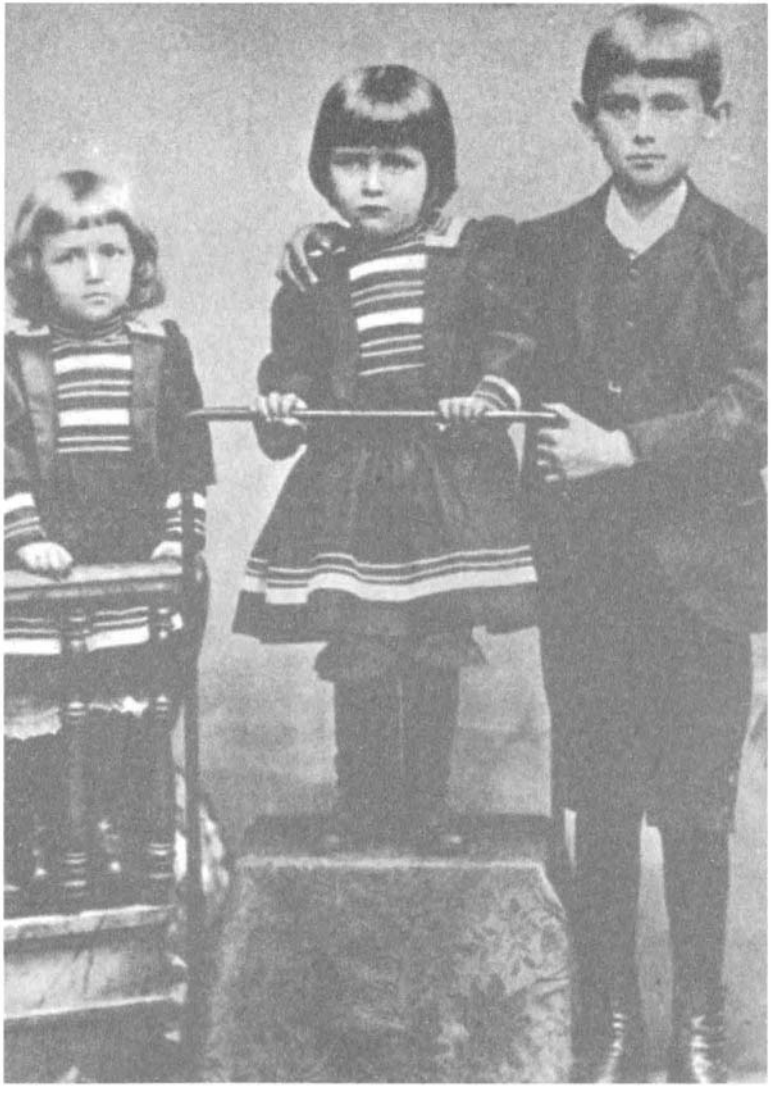

كافكا مع اثنين من إخوته الأصغر سنًا غابريل وفاليري 1893

كافكا في أقصى اليمين وأوتلا في المنتصف

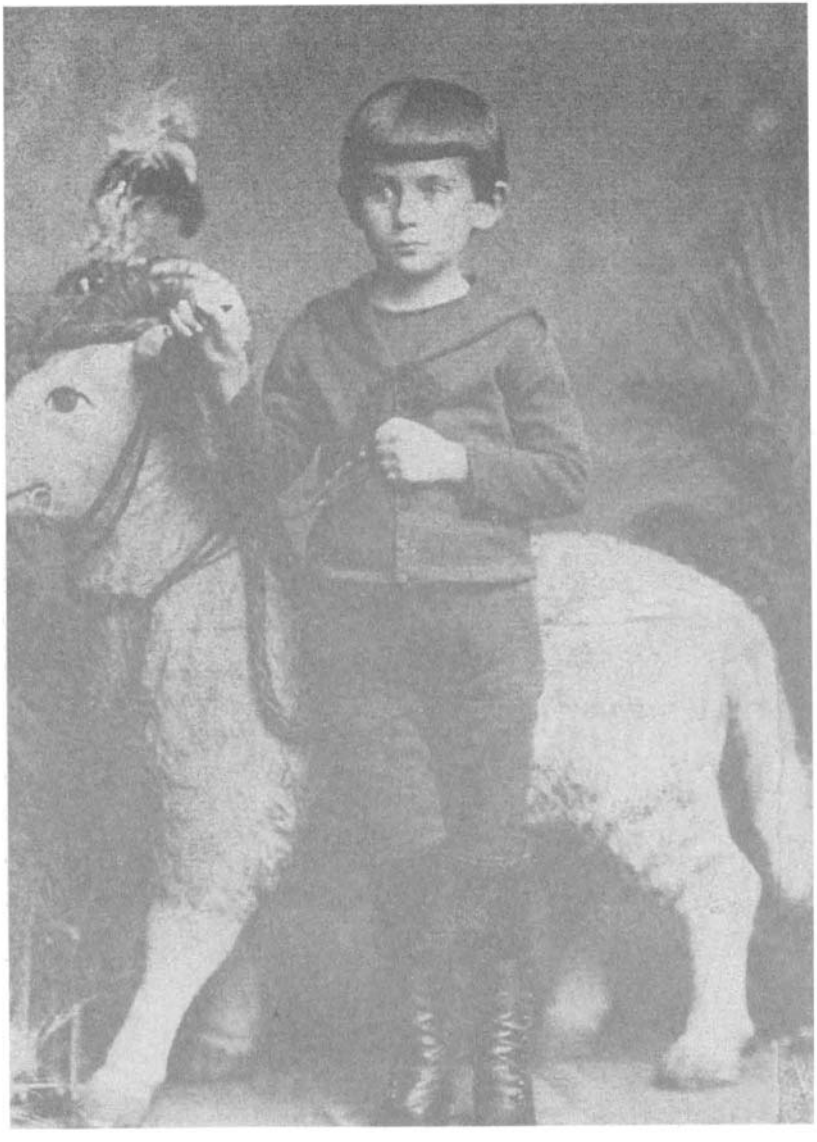

كافكا في سن الخامسة

كافكا مع فليس باور

Liebster Vater, Schelesen 1

Du hast mich letzthin einmal gefragt, warum ich behaupte, ich hätte Furcht vor Dir. Ich wusste Dir, wie gewöhnlich nichts zu antworten, zum Teil eben aus der Furcht, die ich vor Dir habe, zum Teil deshalb, weil zur Begründung dieser Furcht zu viele Einzelheiten gehören, als dass ich sie im Reden halbwegs zusammenhalten könnte. Und wenn ich hier versuche Dir schriftlich zu antworten, so wird es doch nur sehr unvollständig sein, weil auch im Schreiben die Furcht und ihre Folgen mich Dir gegenüber behindern und weil die Grösse des Stoffs über mein Gedächtnis und meinen Verstand weit hinausgeht.

Dir hat sich die Sache immer sehr einfach dargestellt, wenigstens soweit Du vor mir und, ohne Auswahl, vor vielen andern davon gesprochen hast. Es schien Dir etwa so zu sein: Du hast

الصفحة الأولة من رسالة كافكا إلى أبيه

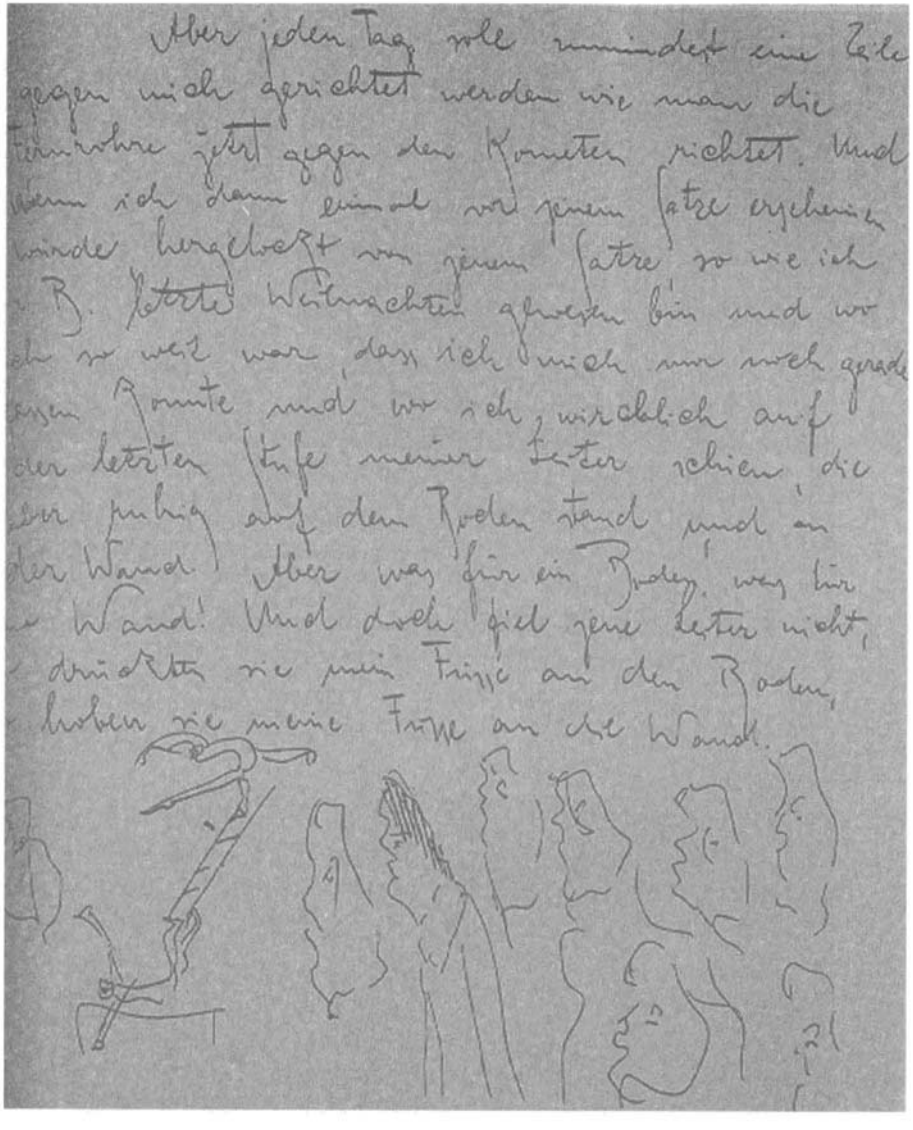

من يوميات كافكا بقلمه

كافكا وأوتالا

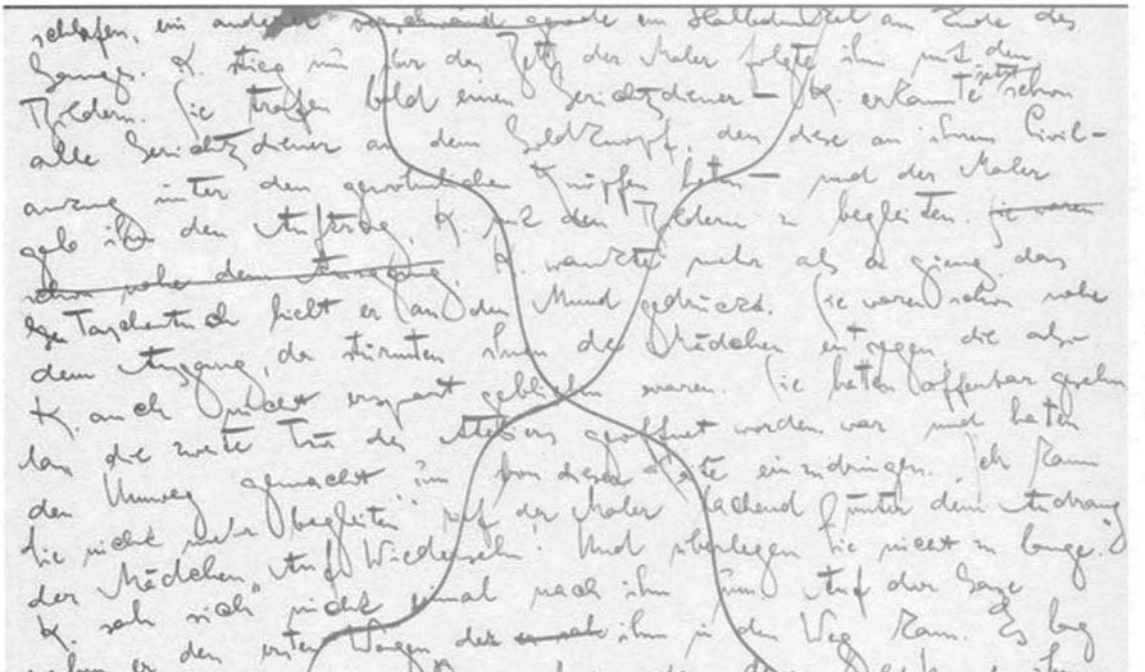

مخطوط رواية القضية

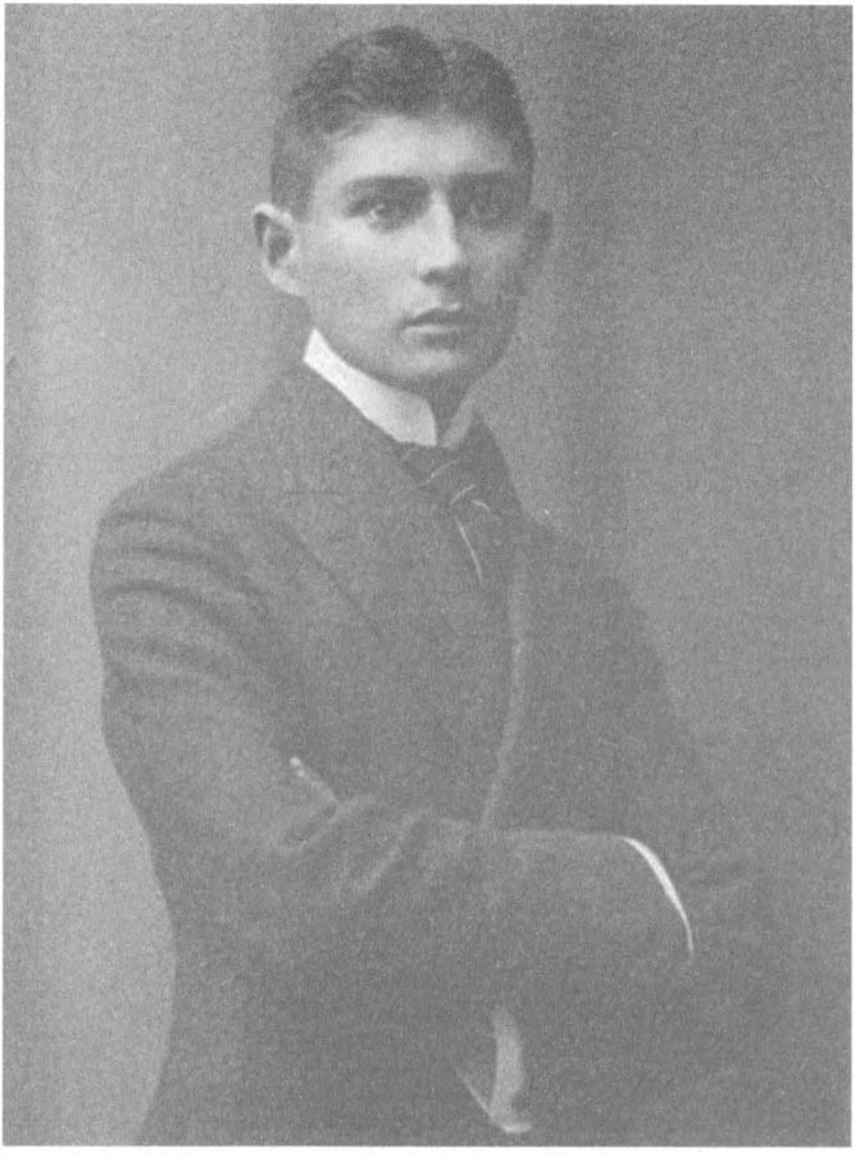

كافكا في عام 1906

نصب تذكاري لـ كافكا في براغ

بعد أن قرأتُ هذا الكتاب، اندهشتُ من ثروة الانطباعات الجديدة التي نقلها، وهي تحمل بلا أدنى شك بصمة كافكا وموهبته. بل حتى مظهره الجسدي، وطريقته في الكلام، وعادته الرقيقة والمعبّرة في الإيماء، وبقية الصفات الجسدية، فكلها يجري تسجيلها بشكل حيوي. وشعرتُ كأنّ صديقي "كافكا" عاد إلى الحياة مرة أخرى ودخل في تلك اللحظة غرفتي. أسمعهُ ثانية يتكلم، وأحسستُ أنّ نظرته الذكية والمفعمة بالحيوية مسلطة عليّ، ورأيتُ ابتسامته الحزينة الهادئة، وشعرتُ بنفسي مرة أخرى، كما راودني شعور أنّ حكمته تمتلكني وتثيرني.

إنّ كلمات كافكا، كما نقلها يانوش، تعطي انطباعاً عن الموثوقية والأصالة. إنها تحمل علامة واضحة على أسلوب كافكا في الحديث، الذي يمتاز بكونه أكثر إيجازاً واكتنازاً من أسلوبه في الكتابة. من المستحيل بالنسبة لكافكا أن يقول شيئاً ليس له مغزى. لم أسمع أبداً كلمة تافهة من فمه. كلّ شيء كان تلقائياً وسهلاً، وأصيلاً بطبيعته، ولم يكن بحاجة للكفاح وراء الأصالة. وهو إن لم يكن لديه شيء مهم ليقوله، فإنّه يبقى صامتاً.

**ماكس برود**

# غوستاف يانوش

# كافكا قال لي

## أحاديث وذكريات

9 789922 623108

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com